رواية

وقت إضافي

سلمى حسب الله

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

٢٣٧٩٣٤

وقت إضافي

سلمى حسب الله

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

الكتاب:
وقت إضافي
المؤلف:
سلمى حسب الله
رقم الإيداع:
١٤٢٢/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي:
٩٧٨-٩٧٧-٥٢٨٣-٠٥-٤
★★★
الغلاف/
محمد محمود
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-٢٢ شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب ١١
هاتف: ٣٣٣٧٠٠٤٢ (٠٢) (٠٠٢) - ٢٣٨٨٥٢٩٥ (٠١٢) (٠٠٢)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

سلمى حسب الله

وقت إضافي

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

الفصل الأول
رَصْدْ

يوليو ٢٠١٠

كانت الساعة الرابعة والنصف مساءً، أي ساعة الذروة، حينما كانت سيارة الإسعاف التابعة لمستشفى «الأمل» تسير على طريق الأوتوستراد متجهة إلى مدينة نصر.. كان الشارع مزدحماً بساكنيه من الحافلات وسيارات الأجرة وعربات الشحن... وقد امتدت الزحمة إلى الشوارع الخلفية والجانبية أيضاً، فحالة الاختناق كانت تعتري الشارع، وتصاعدت سحابة دخان من خلف السيارات، وكاد المرور يكون متوقفاً تماماً.

كانت سيارة الإسعاف في سباق مع الزمن، فعلا صوت سارينتها على صوت نفير السيارات المختلفة في الشارع.. وكان سائقها يحاول بقدر المستطاع المرور عبر السيارات المتلاصقة، وكانت تتبعه سيارة سبور آخر موديل تقودها نجلة المريض.

أما المريض الممدد داخل سيارة الإسعاف فكان يحاول جاهداً أن يلتقط أنفاسه، وكان يمده بالأكسجين بين الحين والآخر طبيب شاب يجلس عن يمينه، أما عن يساره فكانت تجلس سيدة في الأربعين.. جميلة ولكن وجهها خالٍ من أي تعبير، وكأنها تمثال من الشمع.

رن جرس محمول الطبيب الشاب، فرد عليه بصوت خافت قائلاً:

- ألو.. أيوه يا دكتور رشوان، الحالة مش مُطمئنة خالص.. عنده **complete right hemiplegia** ، أوكي أشوف حضرتك في الطوارئ.

نظر المريض إلى الطبيب متوسلاً والخوف يملؤه.. هل القدر سيمهله ويتخطى هذه المحنة؟ أسئلة كثيرة باتت تدور في رأسه.. وأفكاره بدأت تعلو على ضجيج الشارع قائلاً:

- معقول الشعور العجيب اللي أنا حاسه؟ أنا مش قادر أصدق... أول مرة أشعر بالضعف والخوف وقلة الحيلة.. أنا الدكتور محمود أبو العلا اللي كتير من المرضى اتعالجوا على إيدي، مش قادر حتى أضمن لنفسي النَفَس اللي داخل حيخرج ولا لأ.

وصلت سيارة الإسعاف إلى مدخل الطوارئ لمستشفى «الأمل»؛ حيث وقف طاقم من الأطباء والممرضين المختصين لاستقبال المريض.. قاموا بفتح الباب الخلفي للسيارة، وحملوا السرير المتحرك للدكتور محمود مسرعين به إلى الداخل ومن حوله زوجته وابنته التي كانت تتبع سيارة الإسعاف بسيارتها السبور. حاول المريض فتح عينيه أثناء نقله داخل المستشفى، فرأى زوجته سوزان بوجهها العابس، ذلك

العبوس الذي لم ينل من جمالها شيئاً، ثم نظر إلى ابنته ليلى والدموع تنهمر من عينيها.

وفي أثناء السير في اتجاه غرفة الأشعة في البهو الرئيسي والمزود بأحدث الأجهزة، انضم إليهم دكتور رشوان - الذراع اليمنى للدكتور محمود في إدارة هذه المستشفى. حاول الدكتور رشوان أن يداري قلقه بابتسامة هزيلة ليطمئن الزوجة وابنتها، فقالت له الابنة:

- طمنّي على بابي يا أنكل.. هو حالته خطيرة؟

قال دكتور رشوان بهدوء:

- إن شاء الله أطمنك يا لولا، بس الأول أشوف نتيجة الأشعة.

لم يرضِ ليلى رد الدكتور رشوان ولم يطمئنها، وشعرت كأنها تهوي في مكان سحيق، وبدأت دموعها تتساقط كحبات اللؤلؤ، وعندما لاحظ الدكتور رشوان دموع ليلى وضع يده على كتفيها بحنان قائلاً:

- اطمني يا لولا.. بابي حيبقى زي الفل إن شاء الله.

أجابت ليلى بصوت يكاد أن يكون مسموعاً:

- الحمد لله إنك موجود معانا.

تنبهت سوزان زوجة المريض لغياب ابنها فالتفتت إلى ابنتها وهي تقول:

- كلمتي أخوكي؟ مش معقول ما يكنش واقف معانا في يوم زي ده!

قالت ليلى بيأس:

- مامي كلمته، والله كلمته، وقلت له إن بابي تعبان أوي.. قال لي إن عنده تسجيل مع الفرقة.. وما يقدرش ييجي دلوقتي.. وبعد كده بطل يرد على تليفوناتي.

أغمض محمود عينيه حسرةً وألماً لرد فعل ابنه، وبدأ يسأل نفسه: إلى هذا الحد تملكت القسوة من ابنه فأصبح لا يبالي بمصير والده... إلى هذا الحد تَحَجَّر قلب أحمد وتجمد؟ ولكن من المسئول؟ ومن المذنب؟ ومن نوقع عليه اللوم؟ هل الابن المنشغل بحياته ولا يبالي البتة بحالة أبيه، أم الأب الذي ربى وشكل ابنه حتى صار على ما هو عليه.. أسئلة كثيرة لاحقت دكتور محمود دون إجابة قاطعة، أما سوزان فأخذت تحاول الاتصال بابنها دون جدوى، فقد أغلق محموله.. فهمست قائلة:

- مش للدرجة دي يا أحمد.

بعد نتيجة الأشعة، انتقل محمود إلى الطابق العلوي بصُحبة زوجته وابنته والدكتور رشوان لتحضيره إلى غرفة العمليات.. حيث أكدت نتائج الأشعة ضرورة الإسراع بعملية دقيقة.

نظر الدكتور رشوان إلى سوزان، فأشفق عليها من مظاهر الإعياء التي كانت تحاول أن تخفيها وراء تعبير وجهها الحاد، فصاح قائلاً:

- مدام سوزان، حضرتك تقدري تنتظري في جناح ٥٢٣ وأنا حبلغك أول بأول على حالته.. اطمني إن شاء الله بعد العملية حيقوم بالسلامة.

قالت سوزان ببرود شديد:

- أشكرك يا دكتور.

ثم همت بالانصراف وهي تقول لابنتها:

- يلا يا ليلى.

فقالت ليلى مسرعة:

- لأ، أنا حستنى أدام أوضة العمليات لغاية ما بابي يطلع!

فقال لها دكتور رشوان في محاولة لإقناعها بالصعود مع والدتها:

- ما لوش لزوم يا ليلى، خليكي مع مامي في الفترة دي.

كانت سوزان تدرك جيداً مدى تعلق ابنتها بأبيها، فليلى لن تستريح ولن يهدأ لها بال إلا بعد خروج والدها من غرفة العمليات بسلام.. أما سوزان فلا تحتاج إلى مواساة أو مساندة كباقي الزوجات في

مثل هذا الظرف، فتركت ابنتها أمام غرفة العمليات ومضت لتستريح في الجناح المعروض وهي تقول لدكتور رشوان ببرود شديد:

- خليها على راحتها.. أنا مش محتاجة حد معايا.

انتقل المريض إلى غرفة العمليات المزدحمة بأحدث الأجهزة، التف حوله فريق من أكفأ الأطباء والمرضين في المستشفى، ثم تقدم طبيب التخدير دكتور يسري بوجهه البشوش، قائلاً وهو يهم بإعطاء دكتور محمود الحُقنة:

- اطمن يا د. محمود، إن شاء الله هي شكة الإبرة ومش حتحس بحاجة.

نظر دكتور محمود إلى طبيب التخدير متوسلاً ثم أغمض عينيه ليغرق في ذكرياته...

تذكر يوماً أثناء عمله كمدير لهذه المستشفى، وكان جالساً في غرفة مكتبه الفخمة، ثم دخل عليه د. يسري يتوسل إليه في انكسار شديد قائلاً:

- أرجوك يا د. محمود.. بنتي بتموت ومحتاج المبلغ اللي قلت لحضرتك عليه سُلفة عشان أعمل لها العملية.. ما انت حضرتك عارف حالتها.

قال دكتور محمود بلا مبالاة:

- مين يا بني اللي يقدر يسلفك المبلغ الرهيب ده؟! وحتى لو قدرت تستلفه مش حتقدر ترجع ولا حتى ربعه.... وبعدين ما توديها أي مستشفى حكومية لو مش قادر على مصاريفها... لازم تكون عملي يا يسري.

قال يسري بمزيد من التوسل والانكسار:

- يا بيه أنا مش متأخر، بس الخبير الأجنبي جاي في المستشفى هنا ومش حيزور أي مستشفى حكومية.. وحضرتك عارف إنه أحسن واحد متخصص في حالة بنتي.

قال محمود ببرود شديد:

- يا بني الأعمار بيد الله، لازم تبقى مقتنع بكده.. إنت يا واد إيمانك ضعيف ولا إيه؟! يعني ربنا اللي بيحيي ولا د. ويليامز.. يلا يلا روح أي مستشفى حكومية وما تضيعش البنت يا يسري، مسئوليتها في رقبتك.

اقترب دكتور يسري من المكتب وهو يقول بصوت مخنوق محاولاً استعطاف دكتور محمود:

- أتوسل إليك يا دكتور.. ارحم بنتي دي أمها ما بتبطلش عياط.

فقال محمود بغضب وقد نفد صبره:

- أنا مش فاضي لمشاكلك إنت ومراتك النكدية دي... كفاية بقى وروح شوف شغلك.

تمتم دكتور يسري بيأس شديد:

- يعني مافيش فايدة؟!

رد محمود محذراً:

- ما تخلنيش أغير رأيي فيك يا يسري.. وابقى اقفل الباب وراك.

* * *

عاد محمود إلى حاضره وشعر بالدكتور يسري وهو يعطي له حقنة التخدير، وبدأ طاقم العمليات بالعمل بسرعة وجدية.. وكان صوت أجهزة قياس رسم القلب وضغط الدم ومعدل التنفس يعلو على صوت حركة الأطباء في الغرفة.. كان الأطباء يتصببون عرقاً أثناء العمل لحساسية مركز المريض ولصعوبة ودقة العملية التي استغرقت ساعات من الوقت... وفجأة علا صوت جهاز رسم القلب على جميع الأصوات داخل الغرفة ليعلن عن توقف حركة القلب!

قام أحد الأطباء وبسرعة بالضغط وبقوة على صدر محمود بطريقة منتظمة لإنعاشه، بينما قام الآخر بإدخال أنبوبة في القصبة الهوائية تمهيداً لوضعه على جهاز التنفس الصناعي، وأسرعت ممرضة

بإحضار جهاز صدمات القلب الكهربائي وتم توصيله على جهاز التنفس الصناعي، وقام طبيب آخر بإعطاء صدمات كهربائية متكررة على صدر محمود، وفي كل مرة ينتفض محمود بشدة من قوة الصدمة. وأخيراً علا صوت إنذار توقف القلب دون أي انقطاع ليعلن عن توقف القلب تماماً!

فتح الدكتور محمود عينيه... وتعجب لشعوره بالتحرر من أي أوجاع، فقد سكنت جميع آلامه وأصبح في أحسن صحة وحال... ثم نظر حوله ليجد الغرفة قد خلت تماماً من طاقم الأطباء والمرضين، دون أن يلاحظ ذلك الرجل الأنيق الواقف في ركن من أركان الحجرة، فقال بسعادة بالغة:

- أخيراً العملية انتهت على خير.. أنا حاسس إني بقيت كويس قوي.

ثم قام من على طاولة العمليات وهو يقول:

- لازم أكافئ طقم العمليات بالكامل.

انتبه محمود إلى الرجل الأنيق داخل الغرفة فقال له بدهشة واستنكار:

- إنت مين؟

قال له الرجل بابتسامة:

- تفتكر أنا مين؟

فقال له محمود في ضيق وضجر:

- أنا مستعجل ومش فايق للألغاز دي.. مين اللي أذن لك تدخل هنا.. أنا لازم أعاقب المسئولين اللي سمحوا لك بالدخول.

اتجه محمود إلى الباب وهم ليفتحه، ولكنه لم يستطع لمس المقبض، فبدأ يصيح في ذعر وهو يقول:

- يا أمين.. يا عبد التواب.

قال له الرجل الأنيق بهدوء شديد:

- تفتكر حد حيسمعك؟

التفت د. محمود وراءه فرأى جسده مستلقياً على طاولة العمليات.. فقال في دهشة:

- هو أنا ما قمتش من العملية؟ هو أنا...

فقاطعه الملاك الذي جاءه في صورة الرجل الأنيق قائلاً:

- مُت وأنا جاي آخدك.

نظر محمود إلى الملاك بفزع وقال باكياً:

- يا نهار إسود! تاخدني فين؟

فقال له الملاك ولم تفارق الابتسامة شفتيه:

- أكيد إنت عارف إنت رايح فين.

فقال له محمود في هلع شديد:

- استنى بس أشرح لك... أنا مظلوم.

فأجاب الملاك بهدوء شديد:

- هنا ما فيش ظالم ولا مظلوم.. العدل هنا هو اللي حياخد مجراه.

قال محمود متوسلاً:

- طيب والرحمة؟

قال الملاك مبتسماً وهو يضع يده على كتف محمود:

- هو إنت كنت بترحم؟

قال محمود بحماس شديد:

- أنا كنت إنسان خيِّر.. أديت واجبي الوطني والإنساني على أكمل وجه.. وكنت..

قاطعه الملاك قائلاً:

- حيلك حيلك يا د. محمود.. إنت مش في مجلس الشعب ولا بتترافع في قضية من قضايا الحزب الوطني.

- طيب أنا عالجت عيانين كتير.. ده مش حيشفع لي؟

- يـا راجـل علـيَّ الكـلام ده؟ إنـت كنـت مِـريَّح نفـسك علـى الآخر.. الحالة السهلة تعالجها بمنتهى الإخلاص.. أما لو حالة عكت منك.. بعد ما تكون نهبت العيان وخلصت على اللي أدامه واللـي وراه، كنت بتزحلقه علـى الدكاترة الصغيرين علـشان تلـبس فـيهم وتفـضل سمعتك إنت زي البرلنت... د. محمود أبو العلا إديه تتلف في حريـر! ده غير الناس الكتير اللي ظلمتهم.. واللي قضيت عليهم... واللي وقعوا في عارضك ومانجدتهمش و..

توقف الملاك برهة ثم قال:

- هم جايين دلوقتي ينقلوا جثتك للثلاجة!

فتح المرضون الباب ثم دخلوا إلى غرفة العمليات لحمل الجثة.. فسمع د. محمود صوت بكاء ابنته ليلى مـن الخـارج.. فجـرى وراءهـم مستغيثاً وهو يقول:

- الحقوني.. حد ينجدني.. الحقيني يا ليلى يا بنتي.

لم ينتبه إليه أحد.. فقال له الملاك:

- يا بنـي ماحدش حيسمعك، إنت لـسة فـاكر إنـك معـاهم في الدنيا؟

ثم جذبه الملاك من ذراعه اليمنى وهو يقول له:

- تعالَ نروح مكان أهدى عشان نعرف نكمل كلامنا.

وجد د. محمود نفسه مع الملاك على كوبري خشبي مرتفع، لم يستطع محمود أن يتبين مدى ارتفاع هذا الكوبري لأنه لم يكن بمقدوره رؤية أي شيء بسبب الضباب الكثيف الذي كان يحيط بالمكان. فالشيء الوحيد الذي كان واضحاً أمامه هو أشعة الشمس المطلة وراء السحاب التي كانت تزيد المكان روحانية ومهابة.. وكان يسمع بين الحين والآخر صوت حركة الموج المتلاطمة.

لاحظ محمود الملف الذي يحمله الملاك تحت ذراعيه.. أما الملاك فقال له بهدوء:

- أسرع يا محمود، مش عايزين نتأخر.

فقال محمود محاولاً أن يقنع الملاك بوجهة نظره:

- يا أستاذ.. قصدي يا سيادة الملاك أنا راجل مؤمن وبتاع ربنا.. دي السبحة ما كنتش بتفارق إيدي.

فقال الملاك:

- نيتك ماكنتش التقرب إلى الله.. نيتك كانت تجمل صورتك أدام الناس، وتفهمهم إنك راجل تقي.. وفعلاً هو ده اللي فاهمينه معظم الناس عنك لغاية دلوقتي.. يعني يا عم مالكش حاجة عندنا!

قال محمود دفاعاً عن نفسه:

- أنا راجل نزيه.. طب اقرا عني في الجرائد والمجلات.. شوف الناس بتقول عني إيه.

قال الملاك ساخراً:

- عايزني أعرف الأخبار من الجرائد!! عمرك سمعت عن ملاك أهبل؟ الأخبار الحقيقية مكتوبة عندنا في سجلات... إنت كنت وصولي وانتهازي وأناني.. أقول كمان؟

جذب الملاك الملف الكبير من تحت ذراعيه وكان مكتوب على غلافه: صحيفة محمود أبو العلا وتاريخ الميلاد ٢٠ يونيو١٩٥٦ وتاريخ الوفاة ١٤ يوليو ٢٠١٠ ثم قال الملاك:

- حياتك كلها متسجلة عندنا ثانية بثانية.. ابتديت حياتك العملية نائب في مستشفى "الزهور".

ثم قام الملاك بتقليب الصفحات حتى وصل إلى صفحة مكتوب عليها تاريخ ٢٣ يونيو ١٩٨٣، وبها صورة لمحمود وهو شاب ويرتدي بلطيه الأبيض، وكان مستلقياً في غرفة خاصة للأطباء في مستشفى «الزهور» يقرأ كتاباً.

الفصل الثاني
ووقعت في شباكه!

بدأت الصورة تتحرك وكأنها فيلماً داخل الملف الذي يحمل اسم محمود، وأخذ محمود يشاهد جزءاً من حياته.

القاهرة، ٢٣ يونيو ١٩٨٣

غرفة استراحة الأطباء في مستشفى «الزهور» حيث كانت الحجرة مجهزة للإقامة المؤقتة لأطباء النوباتشية، ويوجد بها فراش وثلاجة صغيرة وكُرسيان، كان محمود مستلقياً على أحدهما ويقرأ كتاباً علميا، أما زميله مصطفى فكان واقفاً عند مائدة صغيرة موضوعة في أحد أركان الغرفة، بها أدوات للطهي السريع؛ حيث كان يغلي ماء لعمل الشاي على الغلاية الكهربائية.

دخل عليهما زميلهما عماد – أحد الأطباء الشباب – قائلاً:

– مين يشارك؟ بنلم فلوس عشان ميس مديحة في حالة وضع وعايزين نساعدها.

قال مصطفى بلا مبالاة وهو يشرب أول رشفة من كوب الشاي:

– المساعد ربنا يا عم، وهو أنا لاقي آكل.

وضع محمود الكتاب على المائدة بعنف وهو يقول باستياء:

- الله يخرب بيوتكم.. يعني لازم تولد في آخر الشهر كده؟!

قال عماد في عتاب:

- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء... يا عيال عيب عليكم، أوام نسيتم إزاي ميس مديحة شايلة القسم.. الست عندها أربع عيال وده الخامس.

أخرج محمود محفظته متكاسلاً وسحب منها نقوداً قليلة، وأعطاها إلى عماد.. فنظر عماد بحسرة إلى النقود ثم قال بسخرية:

- إيه الثروة دي كلها! إنت يا واد يهودي منك له.. ولا جنسكم إيه؟!

قال محمود:

- هم دول اللي حيلتي.. خذ الفلوس وانت ساكت، لحسن عليَّ النعمة أرجع في كلامي تاني.

في هذا الوقت دخلت ممرضة بعد الاستئذان لتقول لمحمود:

- دكتور محمود.. المريضة اللي في جناح ٧٠٤ طالبة حضرتك.

قال محمود بفرحة:

- أنا لازم أطلع.. عن إذنكم يا شباب!

خرج محمود من الغرفة مسرعاً فالتفت عماد إلى مصطفى قائلاً:

- شايف الفرحة اللي على وشه؟

قال مصطفى:

- الواد ده مفضوح!

سأله عماد باهتمام:

- تفتكر بيحبها؟

قال مصطفى بتهكم شديد:

- بيحبها ده إيه يا اهبل.. دي سوزان غالب، بنت عبد الفتاح غالب.. وهو انت لسة مش عارف محمود؟

دخل محمود الجناح الذي كانت تقيم فيه سوزان غالب، كانت غرفة كبيرة وبها بعض الورود البديعة الموضوعة في أماكن متفرقة، ولكن سوزان كانت أجمل زهرة في حجرتها، كانت آية في الجمال، لم تكن تبلغ العشرين بعد، جلست مشرقة على سريرها، وكانت أشعة الشمس تتخلل شعرها الذهبي من النافذة المفتوحة أمامها فزادتها جمالاً وإشراقاً. ابتسمت سوزان ابتسامة ساحرة عند دخول محمود، أما محمود فقال لها باهتمام:

– طمنيني، أخبارنا إيه النهارده؟

ردت سوزان برقّة غير عادية:

– أحسن يا دكتور.

أخرج محمود الترمومتر الخاص بسوزان من درج الكومود بجانب الفراش، وقام بنطره ثم قال وهو يضعه في فمها:

- تعرفي.. أنا المفروض أقيس درجة الحرارة لنفسي.. أكيد حلقيها بترتفع أول ما بدخل عندك!

قالت سوزان بخجل:

- يا ترى بتقول كده لكل المرضى اللي بتشوفهم؟

تنهد د. محمود وهو يقول بصوت خافت:

- هم كل المرضى حلوين كده؟

نظر في عينيها الجميلتين طويلاً فأدرك ما لم تستطع أن تبوح به.. ولم يرفع عينيه عنها حتى تنبه إلى صوت سيدتين تدخلان الحجرة.. فمشى مسرعاً وهو يقول:

- الحمد لله، حضرتك بقيتي كويسة أوي.

فقالت إحداهما بامتنان:

- أشكرك يا دكتور.. طمنتنا على سوزان بنتي... الله يطمن قلبك.

كانت والدة سوزان — نرمين هانم — سيدة في غاية الرُقي وفي منتهى الطيبة.. وكانت تزور ابنتها كل صباح ومساء للاطمئنان، في هذا

اليوم صاحبتها إحدى صديقاتها، التي كانت تحبها سوزان كثيراً، التفتت الأم إلى ابنتها وقالت بكل حنان:

- حبيبة قلب ماما عاملة إيه النهارده؟

ردت سوزان بفرحة:

- الحمد لله يا ماما أنا فعلاً بقيت أحسن أوي.

ثم نظرت سوزان إلى السيدة المصاحبة لأمها قائلة:

- أخبارك إيه يا طنط نجوى؟ إنتِ وحشاني أوي.

ردت مدام نجوى بابتسامة:

- حمد الله على سلامتك يا حبيبتي، ما دمت إنتِ كويسة يبقى إحنا كلنا كويسين.. على فكرة مدحت ابني بيسلم عليكي أوي، ماعندكيش فكرة فرح أد إيه لما عرف إنك راجعة بكرة البيت.

تنبهت سوزان إلى إنها ستعود إلى منزلها غداً، وستُحرم من مقابلة الدكتور محمود كل يوم كما كان الحال في المستشفى... فردت في أسى:

- صحيح أنا راجعة بكرة!

في اليوم التالي، استقلت سوزان سيارة أبيها المرسيدس أحدث موديل للذهاب إلى منزلها، وكانت بصحبة أبويها، وقفت السيارة أمام

بوابة المنزل بعد أن قطعت طريقاً ممهداً داخل الحديقة البديعة الملحقة بسرايا غالب.

خرج السائق من السيارة، وفتح الباب الخلفي لعبد الفتاح بك وزوجته وابنته سوزان، ثم فتح حقيبة السيارة ليخرج حقيبة صغيرة خاصة بسوزان.. جرى خادم من الباب الخلفي للسرايا وحمل الحقيبة من السائق وهو يقول لعبد الفتاح بك وزوجته:

- حمد الله على سلامة الهانم الصغيرة.

قالت نرمين هانم والدة سوزان بابتسامتها الصافية:

- أشكرك يا متولي.

ثم ناداه عبد الفتاح غالب وهو يخرج بعض النقود من حافظته ويقول:

- خد يا متولي.

أخذ متولي النقود وهو يقول بفرحة:

- خيرك مغرقنا يا سعادة البيه.

اتجه الخادم بالحقيبة إلى المدخل الخلفي للسرايا، وصعد كل من سوزان وأمها وأبوها على السلالم المؤدية إلى الباب الرئيسي للسرايا، وعند وصولهم إلى أعلى، وجدوا باقة كبيرة من الورد موضوعة أمام الباب.. أخذت الأم الكارت الموضوع على الباقة وقرأت بصوت عالٍ:

- ألف حمد الله على السلامة.. د. محمود أبو العلا.

سأل عبد الفتاح قائلاً وكأنه شعر بأول إنذار للخطر:

- مين محمود ده؟

* * *

استطاع محمود في شهور قليلة أن يرمي شباكه على فريسته.. ولم يستطع أبوها غالب بك أن ينقذ ابنته من مصيرها البائس ويوقف هذه الزيجة على الرغم من عدم التكافؤ الصارخ وعدم ارتياحه الشديد لمحمود.. فقد صممت سوزان على الزواج منه واستماتت في تصميمها، ورفضت أن تسمع لأي نصيحة.

قبل ميعاد الفرح بأيام كان محمود يجلس مع صديقه مصطفى في شرفة منزله المتواضع بحي شعبي، وكانا يتجاذبان أطراف الحديث على أريكة خشبية قديمة ويتناولان كوباً من الشاي.. قال مصطفى في دهشة:

- عايز تقنعني يا شحات إنك حتتجوز بنت عبد الفتاح غالب الخميس الجاي؟

ضحك محمود من قلبه، كم كان يشعر بزهو وانتصار، ثم وضع كوب الشاي على الصندوق الخشبي الموضوع أمامه وهو يقول:

- إنت طبعاً مش مصدق.. إذا كنت أنا نفسي مش مصدق.

قال مصطفى وما زالت علامات الدهشة على وجهه:

- طب إزاي؟ دي رفضت أولاد وزراء ومليونيرات كتير جداً... وفي الآخر تيجي توافق على دكتور كحيان زيك؟

قال محمود بمنتهى الثقة:

- الدكتور الكحيان اللي إنت بتقول عليه ده بكرة تيجي تشتغل في المستشفى بتاعته!

- ليك حق يا سيدي تقول أكتر من كده.. أنا عايز أفهم إنت قلبت كيان البنت دي إزاي في الوقت القصير ده؟

قال محمود بغرور وهو يضع يده على كتف مصطفى:

- يا بني إنت لسة صغير على الكلام ده.

- طب علمني يا كبير.

فجأة رن جرس الهاتف الموضوع بالداخل، اتجه محمود إلى غرفة معيشته الضيقة، وكانت تحتوي على حصيرة وصندوق ومنضدة صغيرة عليها الهاتف... فهرع محمود ليلتقطه.. جذب سماعة الهاتف قائلاً:

- ألو.

عندما سمع صوت أخته عبر الهاتف، أبعد السماعة عن أذنه قليلاً وهو يقول باشمئزاز:

- يا دي العكننة!

ثم وضع السماعة مرة أخرى على أذنه عندما أحس أنه لا يوجد مفر من الحديث معها فقال:

- أيوه يا سعاد.

كانت سعاد أخته تحدثه من عند دكان صغير بقرية أبو المطامير في طريق مصر الإسكندرية، ردت قائلة:

- أبوك تعبان أوي يا محمود.. إنت يا واد جبلة ما بتحسش!

قال محمود بضجر:

- إيه الدش الساقع اللي على المسا ده يا سعاد؟

كانت سعاد تعلم جيداً أن لا فائدة من مكالمة أخيها.. حتى لو اتصلت به مائة مرة فلن تحرك فيه ساكناً، فقالت له بغيظ شديد:

- والله لولا إن أبوك ضغط عليَّ ما كنت كلمتك ولا عبرتك.. أصلك ما تستهلش.

قال محمود وقد استشاط غضباً:

- ما تلمي نفسك شوية يا بت.. هو إيه صندوق الزبالة اللي عمالة بتدلقيه من خشمك ده.

قالت سعاد بصوت عالٍ وبمنتهى الحدة:

- بت إما تبتك... أنا أرجل من عشرة زيك.. مش كفاية إني شايلة حمل أبوك لوحدي.. إنت حتى ما بتساعدش في علاج أبوك بمليم يا سيد الدكاترة.

- إخلصي يا بت وهاتي من الآخر عايزة إيه... أنا الحمد لله على الحديدة!

- وإيه الجديد في كده، دايماً مخلص فلوسك على نفسك.. الحمد لله أنا بشتغل ومكفية ومش عايزين من وشك حاجة.

- أمال عايزة إيه إخلصي.. عشان طلبوني في المستشفى ومش فاضي لكلامك اللي زي السم ده!

لم تستطع سعاد أن تحبس دمعة جرت من عينيها حينما قارنت قسوة أخيها بلهفة أبيها المريض عليه فقالت:

- جرا إيه يا واد يا محمود.. أبوك عيان أوي وبيسترجى اليوم اللي يشوفك فيه.. ما تبخلش عليه بزيارة يا محمود.. أنا حاسة إن أيامه قربت.

- فال الله ولا فالك يا بعيدة... إنت حتقعدي تنُقي على الراجل كده لحد ما تجيبي أجله.

دخل مصطفى حجرة المعيشة وراء صديقه، وفي محاولة لإحراجه قال بصوت عال:

- إنت مش حتعزم الست أختك على الفرح؟

قالت سعاد بدهشة بعد أن سمعت ما قاله مصطفى:

- الله يخرب بيتك.. هو إنت حتتجوز في مصر يا محمود؟ هو ده وقته؟ وبعدين هو إنت نسيت البت أفكار اللي رهنت صيغتها عشان تكمل علامك في مصر؟

أمسك محمود بإناء للزينة قديم موضوع بجانب الهاتف على المائدة الصغيرة وقذف به صديقه ليوقفه عن مواصلة كلامه.. ثم قال لأخته:

- يا بت إنتِ على نياتك كده.. ده الراديو بيذيع تمثيلية سخيفة.

أنهى محمود مكالمته مع أخته ثم التفت إلى صديقه ليؤنبه قائلاً:

- الله يخرب بيت أبوك كنت حتوديني في ستين داهية!

قال صديقه وهو يضحك:

- يعني إنت مش ناوي تعزم أي حد من عائلتك على الفرح؟

قال محمود وهو يضرب مصطفى على رأسه قائلاً:

- إنت عبيط يلا؟ دي اللي بتقدم لنا القهوة في سراية عبد الفتاح غالب أنضف مائة مرة من البت أختي.

* * *

وجاء يوم الخميس.. يوم عقد قران محمود أبو العلا على سوزان غالب، واتزينت حديقة عبد الفتاح غالب وأخذت زخرفها، فطرحت الأشجار أنوارًا للزينة، ووُزعت شموع بالتل على الموائد حول حمام السباحة، وعلت الموسيقى الصاخبة.

كانت علامات الاستفهام والتعجب على وجوه كل المدعوين، سوزان غالب.. حلم كل شاب يافع ينتمي إلى عائلة محترمة، ينتهي بها الحال بالزواج من رجل ليس له هوية، ولا عائلة، ولا نسب... وكأن سيندريلا قد ضلت أميرها واستبدلته بمن لا يليق، أما أبوها عبد الفتاح غالب فكان الأسوأ حالاً.. كان جالساً على إحدى الموائد وقد أخفق في أن يخفي علامات الأسى والشرود الظاهرة على وجهه.. لم يستطع حتى أن يشارك المدعوين الجالسين على مائدته في أي حديث.. بل ظن أن ابتسامته الهزيلة التي وضعها على شفتيه ستخفي ما يشعر به من هزيمة وأسى وذل.. حتى أتت إحدى المدعوات لتقول بفضول:

- يا غالب بيه، هي العروسة نازلة إمتى؟

رد عبد الفتاح غالب بشرود وبصوت منخفض دون أن ينظر إلى المتحدثة قائلاً:

- حالاً... حالاً.

عاد عبد الفتاح غالب إلى شروده، وتركتـه المدعوة وهـي مشفقة عليه!

أما سـوزان.. العروسـة فكانـت في حجرتهـا تـستعد لعُرسـها، وكانت أمها معهـا وبعض أقاربهـا وصديقاتها، كانـت الحجـرة غير مرتبة، وقد تنـاثرت الـشرائط وعلـب الماكيـاج علـى الأرض والفـراش.. وعلت أصوات صديقاتها وضحكاتهن، وكانت سوزان جالسة أمـام المـرآة بالطرحة كالأميرة، ثم وضعت أمهـا عقـدا مـن الألمـاظ الـثمين الخـالص عليها، وأخذت إحدى صديقاتها ترشـها بـالعطر، أمـا مصففة الـشعر الخاصة فوضعت آخر لمسات الماكياج على وجه سوزان.

نظرت سوزان إلى المرآة فلاحظت حزناً يكسو وجه أمها فقالت:

- أنا عارفة يا مامي إن اليوم ده صعب عليكي، لكن يـا حبيـبتي أنا ومحمود مش حنسيبك.. أنا اتفقت معاه إن يوم بعد يوم حنزورك... لأ كل يوم حنزورك بس إنت إياكي تزهقي مننا.

ابتسمت نرمين هانم لتواري حزنهـا.. ثـم سمـع الجميـع طرقـاً على الباب ففتحت إحدى صديقات سوزان الباب فتحة صغيرة ثم قالت بشقاوة:

- إنت إيه اللي جابك هنا يا عـريس؟ مـش المفـروض تيجـي إلا والعروسة جاهزة.

علا ضحك البنات.. أما محمود فقال من وراء الباب ليتعجل عروسته الجميلة:

- المصور تحت يا سوسو.. شهلي بقى.

* * *

في هذه الأثناء كانت سعاد أخت محمود تحاول الاتصال بأخيها من دكان عم برعي في قرية أبو المطامير، ولكن لم يوجد أحد بالمنزل، ولا أحد يرد.. شعرت سعاد بالقلق الشديد.. فأحس المعلم برعي بتوترها، فأخذ يراقبها باهتمام بالغ.. ثم سمعها وهي تهمس قائلة:

- يا ترى إنت فين يا محمود؟!

تنبهت سعاد إلى المعلم برعي وهو واقف يحملق فيها داخل دكانه، فقالت مسرعة وهي تعطي له بعض النقود:

- شكراً يا معلم.

قال المعلم برعي باهتمام وهو يأخذ منها النقود:

- برده ما ردش عليكي؟

- الغايب حجته معاه يا معلم.. بالإذن بأه.

دخلت سعاد بيتها المتهالك في الدور الأرضي بهدوء شديد حتى لا تزعج أباها المريض وتوقظه من نومه، كان البيت عبارة عن حجرة واحدة بها كل شيء من أثاث متهالك ووابور صغير وقُلة موضوعة

بجانب شباك مكسو بخيوط العنكبوت، وأدوات الصرف الصحي في أحد أركان الحجرة!

على الرغم من دخول سعاد على أطراف الأصابع.. شعر بها أبوها.. يبدو أنه لم ينم منذ أن خرجت للاتصال بمحمود.. قال لها والدها:

- كلمتي أخوكي يا سعاد.. كلمتي الدكتور محمود؟

قالت سعاد وهي تحاول أن تبتسم لتطمئن أباها:

- أيوه يابا، وهو زي الفل سأل عليك وأنا طمنته.

قال الوالد بصوت هزيل:

- هو ليه ماجاش بقاله مدة؟ أنا حاسس إني لو عينيه إتملت منه حخف على طول.. النظرة فيه هي دوايا الحقيقي.

قالت سعاد بشيء من الارتباك:

- مش بإيده يابا.. أصل المسكين كل ما ينوي ييجي مدير المستشفى يقعده عشان عيانينه كتيرة.

رفع الوالد رأسه قائلاً بفخر:

- أصل أخوكي شاطر.. ما فيش زيه.. عشان كده هم ماسكين فيه بإيدهم وسنانهم.. بس هو وحشني قوي... وخايف الأجل ييجي قبل ما أخده في حضني.

قالت سعاد وهي تضع يدها على كتف أبيها بحنان:

- بعد الشر عليك يابا.. ما تقلش كده.

- يا بنتي الموت علينا حق... ومش خايف منه، أنا بس عايز أشوف أخوكي، ده كل منايا من الدنيا.

* * *

ككل شيء جميل انتهت أيام شهر العسل بسرعة مذهلة، وجاء موعد عودة العروسين من أجمل البلدان الأوروبية، وقفت نرمين هانم في مدخل فيلا الهرم في انتظار العروسين بعد أن انتهت من وضع اللمسات الأخيرة في ديكور المنزل.

وعند وصول العروسين، دخلت سوزان ببهجة وهي متعلقة بذراع زوجها محمود، وكأنها تريد أن تعلن لكل الناس عن مدى حبها لزوجها.. وعندما رأت والدتها حضنتها بفرحة وهي تقول:

- مامي وحشتيني أوي.. كنت متوقعة إني أشوفك في المطار.

قالت نرمين هانم وهي تمسح على شعر ابنتها:

- ألف حمد الله على سلامتكم يا حبايب، أنا آسفة، ما اقدرتش أكون في استقبالكم في المطار عشان كنت بخلص اللمسات الأخيرة في فرش البيت!

قال محمود بابتسامة عريضة:

-ولا يهمك يا طنط.. إحنا قولنا كده برده.

نظرت الأم إلى عريس ابنتها ثم قالت:

- يا ترى عجبك ذوقي في ترتيب البيت يا محمود؟

قال محمود بحماس وهو ينظر حوله:

- يا طنط كلك ذوق... البيت رائع.

قالت الأم بسعادة:

- ولسة أنا حاخد سوزي بكرة ونلف على المحلات عشان فيه رفايع لازم تتجاب.

ثم قالت الأم بلهفة وهي تلف ذراعيها حول العروسين:

- تعالوا اقعدوا يا حبايب واحكولي... عملتوا إيه في شهر العسل؟

قال محمود معتذراً:

- معلش يا طنط مُضطر أستأذن.. طبعاً حضرتك مش غريبة.. أنا أصلي تعبان ومانمتش طول الليل إمبارح.

شعرت الأم بشيء من الإحراج ثم قالت بابتسامة باهتة:

- خد راحتك يا حبيبي.

صعد محمود إلى الطابق العلوي، أما سوزان فجلست مع أمها

لتطمئنها على حياتها التي اختارتها لنفسها.. فكانت سوزان تعلم جيداً حجم المعاناة والقلق الذي كان يشعر به كل من والديها بسبب هذا الارتباط، ولكنها أيضاً كانت تعلم أنه لم يكن بيديها شيء.. فحبها الجارف لمحمود أتى كالطوفان، من المستحيل أن يمنعه شيء.. حتى لو كان رغبة والديها اللذين ترعرعت في كنفهما طول حياتها.

فقالت وهي تضع يدها على كتف أمها بحنان:

- مامي محمود إنسان رقيق أوي.. مِحتار يعمل لي إيه عشان يسعدني، يا ريت تطمني بابي.. أنا عارفة إنه قلقان عليَّ، وإنه واخد فكرة غلط عن محمود.. بيقول عليه انتهازي ووصولي.. بس صدقيني يا مامي محمود غير كده خالص.

تاقت نرمين هانم إلى تصديق ابنتها، فقالت بابتسامة خفيفة:

- أوكي حبيبتي، أنا حطمن بابي.

ثم نظرت إلى ساعتها وقالت ضاحكة:

- أنا حقوم أمشي بأه عشان أسيبك مع جوزك تستريحوا شوية.. مش عايزة أبقى حما.

قالت سوزان وهي تقبلها:

- إنتِ عمرك ما تكوني حما يا مامي.. إنت ست الناس.

بعد أن رحلت نرمين هانم، صعدت سوزان إلى زوجها في الطابق العلوي، وعندما دخلت غرفة نومهما، وجدته جالساً على الفراش وقد خلع نعليه.. ثم نظر إليها معاتباً وهو يقول:

- باباكي ما جاش ولا استقبلنا في المطار.. ولا حتى كلف خاطره بمكالمة تليفونية!

وضعت سوزان يدها بحنان على كتف محمود وهي تقول له برقة:

- ما تزعلش من بابي يا محمود، أنا عارفة إنك حسَّاس من ناحيته، لكن أنا متأكدة إنه مع الوقت حيحبك زي ما أنا بحبك.. لأنه حيكتشف فيك طيبتك ونُبلك وإنسانيتك.. بس إديله شوية وقت يا حبيبي... عشان خاطري.

جذبها محمود بين ذراعيه قائلاً:

- أنا عشان خاطرك.. أتحمل أي حاجة.

ثم أكمل بصوت خافت:

- حتى لو كانت سخافة أبوكي!

لم يكره محمود شيئاً في حياته كما كره الفقر وعبد الفتاح غالب الذي كان يشعره في كل حركة من حركاته أو حتى ساكنة من سكناته.. بأنه الأدنى.

* * *

مرت الأيام.. وفي يوم من أيام الجمعة وفي حديقة سرايا عبد الفتاح غالب.. أتت سوزان مشرقة ومقبلة على والديها، وكانا جالسين في حديقة المنزل يتناولان الإفطار معاً، قامت بتقبيلهما ثم قالت:

- أنا بحب آجي يوم الجمعة في الوقت ده عشان أقدر أقعد مع بابي شوية.

قالت أمها مبتسمة:

- جوزك ماجاش معاكي ليه يا سوزي؟

قالت سوزان ولم تفارق ابتسامتها شفتيها:

- هو كسلان شوية يا مامي.. إنتِ عارفة يوم الجمعة هو اليوم الوحيد اللي بيصحى فيه متأخر.. تصوري ممكن يفضل نايم لحد الساعة اتنين.

رد عبد الفتاح متهكماً وهو يرشف كوب القهوة:

- ليه هو اعتنق البوذية.. ما يعرفش إن فيه صلاة جمعة؟!

قالت سوزي في توسل. وهي تضع يدها على كتف والدها:

- بابي حرام.. إنت دايماً بتهاجمه على طول بدون داعي.. طب أقولك خبر يدل إنه متجوزنيش طمع في حضرتك أو في مركزك.. الأسبوع اللي فات إتعين في مستشفى أنكل صالح بهجت من غير ما يلجأ لك يا سي بابي، وعلى فكرة أنكل صالح عينه في مركز إداري كبير..

شُفت قد إيه محمود إنسان عصامي!!

رد الأب بحدة:

- جوزك مش محتاج يكلمني عشان طلب زي ده.. جوزك أذكى من كده لأنه عارف طبعاً إن صالح حيعينه بمجرد إنه يعرف إنه جوز بنتي.. من غير ما أرفع سماعة التليفون وأكلمه.

ثم نظر عبد الفتاح غالب إلى ابنته قائلاً:

- إنتي جيتي إزاي؟ فين عربيتك؟

قالت سوزي بارتباك:

- جيت في تاكسي يا بابي أصل... أصل العربية كان فيها صوت غريب وووو محمود خاف أسوقها قبل ما يوديها لميكانيكي ويطمن.

نظر عبد الفتاح غالب إلى ابنته معاتباً، فهو يعلم أنها لا تستطيع أن تكذب عليه طويلاً، والسؤال الذي دار بخلده في ذلك الوقت هو: ستحتاج ابنته كم من الوقت لتكتشف حقيقة زوجها... وكم من الوقت ستستغرقه قبل أن ينفد صبرها معه.

الفصل الثالث
لحظات السعادة قليلة!

ومضى بضعة أعوام.. كانت سوزان خلالها تحاول جاهدة أن تقنع كل من حولها أنها نجحت في اختيارها.. لن تنهزم ولن تنكسر.. ولن تسمح لأي حدث أو موقف أن يغير حبها.. وقد اتصف محمود بذكاء ومهارة جعلاه يجيد إخفاء ما يجب إخفاؤه.. حتى عن أقرب الناس إليه، فلم تعرف سعاد أخته شيئاً عنه.. ولم تعرف سوزان أيضاً شيئاً عن عائلته وأصله إلى أن جاء يوم كانت سعاد بقرية أبو المطامير تشتري جبنا من بقالة المعلم برعي في الصباح الباكر، ثم قالت للمعلم برعي بعد أن قطع لها ربع كيلو من الجبنة الرومي:

- شكراً يا معلم أنا عارفة إني بشتري على الفاتورة من مدة.. لكن أوعدك إني حدفعلك أول ما ربنا ييسر الحال.

قال الحاج مبتسماً:

- لا شكر على واجب يا بنتي.. إنتِ أبوكي الله يرحمه كان صاحب أفضال عليَّ.

تمتمت سعاد قائلة:

- الله يرحمه.

تذكرت سعاد أباها ومرضه وقلة حيلته وحرمانه من أغلى أمل عنده وهو رؤية محمود قبل أن توافيه المنية.

سألها الحاج برعي بفضول شديد وكأنه عرف ما يدور بذهنها:

- هو ما فيش أي أخبار من محمود؟ هو لسة ما يعرفش إن أبوه اتوفى؟

قالت سعاد بأسى:

- ما فيش أي أخبار يا عم برعي.

في هذه الأثناء جاءت امرأة بجلباب أسود ووقفت وراء سعاد، رفعت يدها بالنقود لشراء حاجتها قائلة:

- عايزة بعشرة صاغ فول يا عم برعي.

قال لها الحاج برعي بضيق:

- صبرك عليَّ شوية يا ست صفية.

ثم عاد ليكمل حديثه مع سعاد قائلاً:

- ما كلمتيش المستشفى اللي شغال فيها ولا سألتي عند حد من أصحابه؟

ردت سعاد في حسرة:

- ساب المستشفى اللي كان بيشتغل فيها.. ومصطفى صاحبه

الوحيد اللي كنت عارفة نمرته قال لي إنه ما يعرفش عنه حاجة.. يا ترى إنت فين يا أخويا.. حي ولا.

وإذ بصفية، المرأة التي كانت واقفة تنتظر دورها لتشتري إفطارها قالت:

- حي يُرزق يا أختي.. ده أنا والبت بهانة شوفناه في تصويرة مع غندورة من بتوع مصر في مجلة عند الكوافير مختار.

استدارت سعاد إليها ثم قالت بلهفة:

- إنتِ بتتكلمي جد يا بت؟ إوعي يا بت يكون حد شبهه.

ردت صفية وهي تضرب كفها على صدرها قائلة:

- عيب يا سعاد هو أنا تايهة عن أخوكي.

تركت سعاد البقالة بسرعة وأخذ الحاج برعي ينادي عليها قائلاً:

- الجبن يا ست سعاد.. العيش... لا حول ولا قوة إلا بالله.

جرت سعاد بلهفة وسط الحقول.. متجهة إلى محل مصفف الشعر.. كانت تجري بين الفلاحين والبهائم المنتشرين في الأراضي المزروعة.. وكانت على وشك الوقوع أكثر من مرة لجريها بأقصى سرعتها على أرض طينية غير ممهدة، التفتت إليها إحدى الفلاحات وكانت تزرع في أحد الحقول، لمعت عيناها عندما رأت سعاد تجري

بسرعة وبدون تعب، تركت الفلاّحة الزراعة ولحقت بسعاد وهي تقول لها بلهفة:

- سعاد فيه أخبار عن أخوكي؟

قالت لها سعاد وهي لا تزال تجري:

- إنتِ فين يا أفكار.. البت صفية بتقول إنها شافت له تصويرة في مجلة عند الكوافير مختار، والمياه تكدب الغطاس.

قالت أفكار بفرحة غامرة:

- والنبي.. يا ألف نهار أبيض.. أنا جاية معاكي.

وصلت الفتاتان إلى محل مصفف الشعر وعندما دخلا المحل وجدا صاحبه يصفف شعر إحدى زبائنه.. ثم التفت إليهما قائلاً بفرحة:

- ده المحل نور يا جدعان!

كان مختار يعشق سعاد، وكم من مرة باح لها بحبه ولكنها كانت دائماً تطلب منه التأجيل لمرض أبيها ثم بعد أن وافته المنية تحججت بغياب أخيها، وفي الحقيقة كانت تخشى أن ترتبط بمختار وهي تعلم حجم مسئولياته، فهو يعول أمه وثماني أخوات.

قالت سعاد بأسف:

- معلش يا خويا، إحنا جايين بس نتفرج على المجلات اللي عندك، أصل البت صفية بتقول إنها شافت لخويا تصويرة عندك.

- عارفها وشايلها لك يا ست الكل.. كنت لسة حبعت لك الواد دُؤدُؤ بالمجلة، إنت بس تؤمري!

أعطى مختار المجلة لسعاد وهو يقول بتنهيدة:

- أنا ما صدق أعمل لك أي حاجة يا ست سعاد، إنتِ عارفة معزتك عندي.

قالت سعاد بلوم:

- بقولك إيه يا سي مختار أنا في إيه ولا إيه.. أنا حاخد المجلة وحبقى أرجعها لك.

قال مختار يستعطفها:

- يعني يا بت دماغك ناشفة كده على طول.. ده أنا غرضي شريف.

ثم قالت سعاد وهي تهم بالخروج ومعها أفكار:

- مش وقته دلوقتي يا سي مختار، بعدين نبقى نتكلم.. بالإذن.

قال مختار بابتسامة:

- وأنا مستني.

خرجت سعاد ومعها أفكار من المحل ووقفتا تستظلان تحت شجرة، وكانت سعاد تبحث بلهفة في صفحات المجلة عن صورة محمود.. أما أفكار فكانت تقف وراءها.. تنظر بقلق.. وأخيراً وجدت سعاد صورة لأخيها في إحدى الصفحات وكان مع زوجته الجميلة، وقد كُتب تحتها الآتي: حضر افتتاح المعرض مدام سوزان غالب ابنة رجل الأعمال المعروف عبد الفتاح غالب وزوجها دكتور محمود أبو العلا.

قالت سعاد في دهشة:

- يخرب بيتك هو إنت اتجوزت!!!

تنبهت سعاد إلى صوت بكاء أفكار وهي تلطم على خديها.. أفكار، تلك البنت المنكسرة اليتيمة، التي دفعت ورثها كله لمساعدة محمود حتى يستطيع أن يكمل تعليمه في القاهرة، وعاشت سنين على أمل أن يعود إلى القرية ليتزوجها، أو بمعنى آخر يعلن زواجه منها.. لكنها الآن تشعر بأنها قشة في مهب الريح، لقد تخلى عنها حبها الوحيد الذي ضحت من أجله بكل شيء وأغلى شيء... أخذت أفكار تصرخ وهي تقول:

- يا نهارك اسود يا أفكار.. يا يومك اللي مش فايت.. يا ريتني كنت مت وادفنت قبل اليوم ده.

حاولت سعاد تهدئة أفكار قائلة:

- معلش يا ختي، أنا كفيلة أرجع لك حق الصيغة اللي بعتيها على أخويا الجبان ده.

صرخت أفكار في وجهها قائلة:

- صيغة إيه يا ختي اللي بتتكلمي عليها.. يا ريتها جت على الصيغة وبس.. ده أخوكي أخد مني أغلى من كده.. أخوكي دبحني.. قعد يقولي أوامك أبصر إيه.. عيونك نعسانة.. إنتِ يا بت تدوخي بلد.. أجمل من بنات مصر كلاتهم.. أعمل إيه دلوقتي يا ربي.

قالت لها سعاد بعتاب شديد:

- إنتِ يا بت هبلة.. دلوقتي بس افتكرتي ربك.. وما افتكرتهوش ليه قبل الواقعة المهببة اللي إنتِ فيها دي.

- ارحميني يا سعاد مش حتبقي إنتِ والزمن.. أنا أعمل إيه دلوقتي.. أموت نفسي.

شعرت سعاد بالشفقة عليها فقالت لها:

- يا هبلة تموتي نفسك عشان صرصار زي ده، والنبي لاجيبلك حقك منه.

* * *

كانت سوزان غالب تجلس مع إحدى صديقاتها في حديقة منزلها بالهرم، وتتابع ابنها الصغير بعينيها، وكانت محاسن المربية

تدلله وتلعب معه بالكرة.. أما بواب المنزل فكان يلتقط الكرة بين الحين والآخر ليداعبه هو الآخر، وعندما سمع البواب صوت نفير سيارة محمود، أسرع لفتح البوابة، ثم دخل محمود بسيارته الفخمة ليوقفها في الجراج الخاص داخل الحديقة، وعندما خرج من سيارته، جرى عليه طفله ليحضنه.. ومن ورائه الخادمة، فأبعده محمود بمنتهى الضيق قائلاً:

- يا واد ابعد عني.. إنت إيدك مليانة شيكولاتة.. وسخت هدومي.

ثم نظر إلى المربية وقال لها باستياء:

- إيه يا محاسن.. إزاي سايبة الولد بالمنظر ده؟

اتجه محمود إلى زوجته وقال لها غاضباً دون أن يراعي وجود صديقتها:

- يا سوزان.. تعالي شوفي ابنك.. نضفيه.

فقالت سوزان بارتباك وهي تحاول تهدئته:

- ما جراش حاجة يا محمود لكل النرفزة دي.. ألفت لسة مدياله الشيكولاتة وأكلها.

ثم التفتت إلى المربية قائلة:

- محاسن، خدي أحمد على جوه واغسلي له إيده.

أخذت المربية الطفل إلى الداخل، أما أُلفت صديقة سوزان فنظرت إليها معاتبة لعدم ترحاب زوجها بها فقالت سوزان مسرعة:

- مش تسلم على ألفت يا محمود؟

قال محمود ببرود دون أن ينظر إلى الضيفة:

- أهلاً يا ألفت.

قالت ألفت بابتسامة تائهة تحاول أن تضعها على شفتيها:

- إزيك يا د. محمود.. كويس إني شوفتك عشان أعزمك بنفسي على افتتاح جمعية نساء الواحة.

قال محمود دون اكتراث:

- والله يا ألفت مش عارف أقول لك إيه.. بس أنا معنديش وقت خالص للجمعيات دي.. أنا مش فاضي زيكم.

قالت ألفت غاضبة:

- فاضي!! دي جمعية خيرية يا د. محمود مش للتسلية.

ابتسم محمود بتهكم وهو يقول:

- ما انتم لازم تقولوا كده.. مبروك على العموم.. عن إذنكم.

شعرت سوزان بارتباك شديد لسلوك زوجها الغير لائق، ولم تجد أي كلمة تبرر بها تصرفاته، أما ألفت فآثرت أن تمشي مسرعة

بحجة أعمال لا بُدَّ من إنجازها قبل يوم الافتتاح.

دخل محمود دون اكتراث وجلس يشاهد التلفاز في صالة المعيشة.. ثم دخلت وراءه زوجته قائلة بغضب:

- ما كنش ليه لزمة تحرجها بالمنظر ده.

قال محمود وهو يضع قدميه على المائدة الموضوعة أمامه دون مبالاة:

- هي مين دي؟

وقفت سوزان أمام التلفاز لتحول بينه وبين المشاهدة، ثم قالت بغضب:

- ألفت يا محمود، يعني ما كنش فيه داعي تفهمها إنها ست فاضية وهايفة.

قال محمود ببرود:

- آه.. نسيت إن الحقيقة بتزعل وبتوجع أحياناً.

قالت سوزان بحدة:

- يا سيدي إذا كانت ألفت هايفة في نظرك، احترمها عشان خاطري وعشان خاطر هي في بيتك، وبعدين أُلفت وأهلها طول عمرهم ناس مجاملين لبابي، وأنا مقدرش إني ما جاملهمش في يوم افتتاح جمعيتهم.

قال محمود متهكماً:

- أنا بقى مش بابي عشان أجاملهم.. وهم مش فارقين معايا.

قالت سوزان بدهشة:

- إيه اللي حصلك يا محمود؟ إنت ما كنتش كده.. إنت كنت أكتر واحد بتجامل الناس اللي نعرفها!

أغلق محمود التلفاز بعصبية ثم اقترب من سوزان قائلاً بشراسة:

- عايزة تعرفي إيه اللي حصل؟! زهقت من دور جوز الست يا هانم.. زهقت من إن كل الناس بتعاملني على أساس إني جوز بنت عبد الفتاح غالب.. زهقت من نظراتهم وتلميحاتهم السخيفة.

قالت سوزان بانفعال:

- إنت ليه دايما بيتهيألك إن الناس بتتكلم عنك من ورا ضهرك.. ليه بتحس إنك إنت قليل في وسط الناس؟

بهذه الكلمات القليلة لمست سوزان مُركب النقص المتوغل في نفس زوجها، والذي أجاد إخفاءه منذ زمن.. فأخرجت بتلك الكلمات أسوأ ما فيه.. إذ جذب محمود ذراع زوجته بشدة وفي عينيه كل الكراهية والحقد على طبقتها قائلاً:

- دي آخر مرة أسمح لك تتكلمي معايا فيها بالشكل ده، أنا

عمري ما كنت قُلِّيل.. أنا محمود أبـو العـلا.. وإذا في يـوم لسانك طـول تاني حقطعهولك.. إنتِ فاهمة؟!

انهارت زوجته باكية وهي تصرخ وتقول:

- سيب إيدي.. إنت بشع.. أنا كأني باشوفك لأول مرة.. مش قادرة أصدق إنك محمـود اللـي حبيتـه ووقفـت أدام كـل النـاس علشان اتجوزه.. إنت عارف أنا ضحيت قد إيه عشانك ووقفت جنبك.

صرخ محمود في وجهها قائلاً:

- كفاية بقى، أنا زهقـت مـن أسـطوانة التـضحية اللـي طـول النهار تسمعيها لي.. إنتِ ما ضحتيش ولا حاجة.. إنتِ عانـدتي أهلـك عشان تثبتي لهم إنك ليكي شخـصية وإرادة وتقـدري تختـاري جـوزك حتى لو كان مش على رغبتهم.. ووقفتي جنبي عـشان مـش عـايزة حـد يشمت فيكي ويقول في يوم من الأيام إن اختيارك كان غلط.. يعني مجرد كنتِ بتحققي ذاتك فيَّ.

قالت سوزان بحسرة وهي تمسح دموعها:

- دي آخرتها؟! ده كـل اللـي إنـت شـايفه في وقفـتي جنبـك ومساعدتي لك؟ إثبات ذاتي أنا.. يا خسارة.

وتركته باكية.

في تلك الليلة لم يغمض لها جفن.. فقد بدأ يتكشف لـهـا حقيقـة

زوجها، الحقيقة التي كثيراً ما حاولت أن تحيد بصرها عنها، أجل لقد بدأت تعي أن والدها كان محقاً ولكنها ومع الأسف لم تسمع لنصيحته الغالية عندما كانت أحوج الناس إليها.

* * *

وفي اليوم التالي، سافرت سعاد وأفكار في الصباح الباكر إلى القاهرة، واتجهتا إلى فيلا محمود أبو العلا في الهرم، كلما قربت المسافة خفق قلبهما من القلق والتوتر، كانت سعاد تحاول جاهدة إخفاء قلقها بخلاف أفكار التي بدت مخاوفها مع كل حركة، وفي كل كلمة نطقت بها وكل تعبير رسم على وجهها.

عندما وصلتا إلى الفيلا، اقتربتا من البوابة، فصاح البواب الذي كان متكئاً على كرسي خشبي لحراسة الفيلا:

- إيه، هي الوكالة من غير بواب؟! هاجمين كده على المكان من غير لا إحم ولا دستور.

ردت سعاد بسرعة:

- اسمع يا حاج.. إحنا جايين نقابل محمود.

سألهم البواب بتعجب:

- محمود مين؟

قالتا الاثنتان في نفس واحد:

- محمود أبو العلا.

نظر إليهما البواب باحتقار ثم قال بسخرية:

- مرة واحد كده، عايزين تقابلوا د. محمود أبو العلا... طب هو مش موجود اتفضلوا بأه من غير مطرود.

قالت أفكار بتوسل:

- طب الست بتاعته موجودة؟

قال البواب:

- الست سوزان؟ هي بتدي الشهرية للناس الغلابة في أول كل شهر.

ثم أخذ يدفعهما بعيداً وهو يقول:

- تقدري تجيلنا كمان أسبوعين، يلا... يلا... مع السلامة.

قالت سعاد بحدة:

- غلابة إيه يا عمنا إنت.. ما تفتح شوية وتشوف إنت بتكلم مين، أنا أخت د. محمود.

أخذ البواب يحملق في جلابيبهما المهلهلة ووجههما المعفر بالتراب ثم قال باستنكار:

- جرى إيه يا ولية إنتِ وهي... هو أنا ماعنديش نظر،

فاكريني عبيط ولا إيه؟! امشي اتجري من هنا منك ليها، وإياكي أشوف وش حد فيكم هنا تاني.

في هذا الوقت وقفت سيارة فاخرة كانت تقودها سوزان، فأسرع البواب ليفتح البوابة، أما سعاد فأسرعت إلى السيارة ثم صاحت قائلة:

- يا مدام سوزان، عايزة أقابلك.. أنا سعاد أخت محمود جوزك.

نظرت سوزان في دهشة بالغة إلى المرأتين ثم قالت للبواب:

- دخلهم في الصالون يا أبو صابر.

قال البواب بضيق:

- أمرك يا فندم.

نظرت سعاد إليه نظرة المنتصر قائلة:

- ما كان من الأول.

أخذهما إلى الداخل حيث قادهما أحد الخدم إلى الصالون، جلست سعاد وأفكار في صالون الفيلا تنظران بدهشة إلى أثاث المنزل الفخم.. ثم نظرت أفكار إلى صورة فرح محمود المعلقة على الحائط، وشعرت وكأنها سقطت في بئر ليس له قرار.. ذرفت دمعتين مسحتهما بسرعة بكُم جلبابها، ثم دخلت عليهما إحدى الخادمات وقدمت لهما عصيراً طازجاً، و دخلت بعدها سوزان بأناقتها المعتادة، رحبت بهما قائلة:

- أهلاً بيكم.

ثم جلست بجانب سعاد وقالت لها مبتسمة:

- إنتِ أخت محمود في الرضاعة؟

- لأ يا مدام أنا أخته شقيقته.

قالت سوزان بدهشة وبصوت خافت:

- عمره ما قال لي إنه عنده أخت عايشة.

ثم نظرت سوزان إلى أفكار قائلة:

- هو أنتِ أختهم كمان؟

ترددت أفكار في الإجابة ولكن ردت سعاد نيابة عنها قائلة:

- لأ ولكن هي أكتر من أخت لنا.

قالت سوزان بمزيد من الدهشة:

- غريبة أوي.. محمود قال لي إن عيلته كلها ماتت تحت أنقاض البيت اللي وقع من ١٠ سنين.

قالت سعاد بأسى:

- محمود قال لك كده!! معلش الله يسامحه.

نظرت سوزان إلى المرأتين وبدأت ترتاب منهما وتتوجس منهما خيفة.. فلا يوجد سبب واحد يدفعها لتصديق هاتين المرأتين اللتين

ظهرتا لها فجأة وجاءتاها بخبر لا يعقل ولا يستند على أي دليل... فقالت لهما وهي تهم بالوقوف لتنهي المقابلة:

- ما تزعليش مني يا آنسة سعاد.. أنا مش معقول أكدب جوزي وأصدق واحدة أول مرة أشوفها.

فقاطعتها سعاد قائلة:

- أنا عاملة حسابي على كده، عشان كده أنا جايبة التصاوير بتعاتنا القديمة لما كان محمود معانا في البلد وشهادة وفاة أبويا.. ورسائل كان بعتها لنا زمان لجل ما تصدقي... وأنا مستعدة أقابله أدام حضرتك وتشوفي بنفسك.

نظرت سوزان في الصور والأوراق والمستندات في دهشة بالغة.. فجأة وقفت قائلة:

- ثانية واحدة.

أخذت التليفون واتصلت بزوجها، كان محمود وقتها جالساً في حجرة مكتبه الصغيرة في عيادته بعد أن انتهى من الكشف على آخر مريض، رد على الهاتف فسمع زوجته وهي تقول بنبرة حادة:

- ألو... محمود.. سعاد أختك وأفكار عندي في البيت.. من فضلك تعالَ أوام.

شعر محمود بأن الأرض تنسحب من تحت قدميه.. على الرغم

من يقينه بأن حتماً سيأتي يوم يواجه فيه زوجته بما يخفيه عنها بخصوص عائلته، ولكنه كان متأكداً من أن هذا ليس هو الوقت المناسب.. إنه لم يكن مستعداً لهذه المواجهة بعد.. إذن لا بُدَّ أن يمنع حدوثها بأي ثمن... فقال بعصبية شديدة:

- إوعي تصدقيهم دول ناس حُسالة.. اطرديهم من البيت حالاً... أنا جاي دلوقتي ومش عايز أشوف الأشكال دي في البيت.

قالتَ سوزان باستنكار:

- أطرد أختك يا محمود.. إزاي؟

قال لها بنفس النبرة الحادة:

- دي مش أختي.. اعملي اللي بقولك عليه وانا جاي أفهمك.

وضعت سوزان سماعة الهاتف ثم تنبهت إلى صوت بكاء المرأتين، وعندما استدارت وجدتهما تهمان بالانصراف.. ثم قالت سعاد وهي ما زالت تبكي:

- حسبي الله ونعم والوكيل فيك يا أخويا يا بن أمي وأبويا.

أرادت سوزان أن تتأكد من الخبر فوضعت يدها على كتف سعاد قائلة وهي ترجوها:

- من فضلك استني لما يرجع.. إنتِ نفسك قولتي من شوية إنك مستعدة تواجهيه.. وأنا لازم أفهم إيه الحكاية.

استجابت سعاد وأفكار لطلب سوزان وانتظرتا معها حتى عاد محمود من الخارج، وعند وصوله سمعن صوته الثائر حيث كان يصيح بجنون قائلاً:

- أنا مش قلت لما آجي ما شفش الأشكال دي هنا... يا أبو صابر.. يا مصطفى.. طلعوا الناس دي بره.

دخل محمود عليهن الصالون... كانت عصبيته تخفي وراءها قلبه المرتعش الذي كان يخفق من حدة الاضطراب والخوف... أما سعاد فوقفت ودموعها على خديها، وأخذت تتأمل أخاها في ثوبه الجديد.. لقد تغير كثيرًا شكلاً وموضوعًا، تكاد ألا تعرفه.. اقتربت منه وحاولت أن تلمس وجهه بيديها لتتأكد منه، ودت لو تسأله: هل أنت أخي محمود؟

فأبعد يدها بقسوة قائلاً:

- ابعدي عني.

فقالت بحسرة وهي تجفف دمعها:

- متشكرين يا أخويا على المقابلة.. أنا من النهارده أخويا مات.

ابتعد عنها محمود قائلاً:

- إنتِ ست مجنونة.. بتتكلمي كأني أخوكي بجد.

أما أفكار، فأغمضت عينيها ثم فتحتهما لعلها تغير من الواقع شيئاً.. ولكن الواقع ظل كما هو.. أبشع من أي كابوس.. فقالت بصوت باكٍ:

- دي آخرتها برده يا سي محمود؟

قاطعتها سعاد وهي تقول:

- استني إنتِ بس يا أفكار.

ثم التفتت إلى أخيها قائلة:

- يا دكتور محمود.. أنا مايشرفنيش إني أكون أخت لواحد زيك.. أنا ماشية بس قبل ما امشي حقولك خبر مش عارفة حيفرق معاك ولا لأ.. أبوك مات... مات وكان مُنى عينه ياخذك في حضنه قبل ما يموت.. مات وماكنش معايا فلوس الكفن لولا بس ربك اللي سترها.

أدمع محمود، إذ تذكر والده.. وتذكر حجم معاناته وعذابه.. لقد وُوري تحت التراب دون أن يهنأ يوماً... تعجب من القدر الذي قدَّر لأبيه أن يعيش عيشة ضنكاً برغم طيبته ونبله... فكان دائماً يرى والده ضحية الفقر والحرمان وضحية مبادئه التي منعته دوماً من أن يسلك أي طريق قد ينجيه من بؤسه لمجرد أنه طريق مشبوه، ولذلك صمم محمود ألا يكرر مأساة أبيه ولا يكون أبداً صورة أخرى منه، ولتحقيق الرخاء المنشود رأى محمود أن الأمر يحتاج منه ومن أهله إلى أعوام من

التضحيات يستطيع فيها أن يثبت قدميه ويؤمن نفسه بثروة طائلة وجاه وسلطة ونفوذ، ثم يستطيع بعدها أن يواجه المجتمع بأصله.. ويأتي بوالده ويعوضه عن كل ما فاته، ولكن القدر لم يمهله.. تمنى محمود لو بإمكانه أن يرى والده ولو مرة أخيرة ليشرح له سبب عزوفه عنه.. فربما يفهمه.. ولكن بعد أن أصبحت هذه الأمنية مستحيلة، لم يجد أمامه إلا أن يأخذ من محفظته مبلغاً من المال ويقدمه لأخته قائلاً:

- خدي دول معاكي.

أبعدت سعاد عنها يد أخيها الممتدة بالمال وهي تقول:

- تحرم عليَّ فلوسك يا د. محمود.

استدار محمود ليعطي المبلغ لأفكار قائلاً:

- طب خدي إنتِ يا أفكار.

ابتسمت أفكار ابتسامة حزينة قائلة:

- فلوس الدنيا ما حتعوضني اللي إنت أخدته مني يا محمود بيه، حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

نظرت سوزان إلى زوجها بحسرة... لقد تأكدت الآن من مدى زيف وكذب زوجها وأدركت مدى هبوطه ودنو أخلاقه.

همت سعاد وأفكار بالخروج، وفي طريقهما إلى الباب وجدتا محاسن المربية تحمل الطفل أحمد على كتفها... فقالت سعاد:

- ده ابنك؟ حيعمل معاك اللي عملته في أبويا.. كله سلف ودين يا محمود.

تركت سعاد وأفكار منزل محمود.. أما سوزان فنظرت إلى زوجها نظرة أسى وهي تقول ببكاء شديد:

- أنا مش قادرة أصدق اللي شفته وسمعته دلوقتي... مش ممكن يكون عندك أي قلب أو إحساس أو ذرة ضمير.. إنت مش بني آدم.

صاح محمود مدافعاً:

- إنتِ مش فاهمة حاجة.. سعاد طول عمرها حقودة وغلوية، أنا حبيت إني معرفكيش عليها عشان أحميكي منها.

صرخت سوزان قائلة:

- كفاية كدب بأه كفاية.

وجرت سوزان إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها واستمر محمود في دق الباب عليها قائلاً:

- أنا مش فاهم إنتِ بتعملي كده ليه؟ إذا ما كنتيش خايفة على نفسك خافي على اللي في بطنك... ذنبه إيه؟

قالت سوزان بعد أن رمت نفسها على فراشها ودفنت وجهها في وسادتها على أمل أن تختبئ من واقعها المر.. وأخذت تبكي بحرقة

وهي تقول:

- يا ريته ينزل.. يا ريته يموت أنا مش عايزة أي طفل تاني يربطني بيك.

لم تكن هذه الكلمات مجرد كلمات خرجت من فم سوزان وهي في حالة هياج أو غضب أو حزن... ولكن كانت لمحة مما يحمله قلبها من مقت وكراهية لزوجها... هكذا تحولت مشاعرها إلى النقيض... أجل إنها الآن نادمة أشد الندم... يا ليتها كان لها عين ترى وأذن تسمع حتى تصغي لنصائح والديها... ولكنها باتت تندم من حيث لا ينفع الندم.

الفصل الرابع
صفحة أخرى من الصحيفة

انتهى الملاك من قراءة هذا الفصل من صحيفة محمود أبو العلا؛ حيث كان محمود يقف معه على نفس الكوبري الخشبي المرتفع، وأشعة الشمس لا تزال مطلة وراء السحاب... أغلق الملاك الصحيفة وقال لمحمود بسخرية:

- ما شاء الله.. كوكتيل معاصي وذنوب وكبائر قد كده.. إنت ما خلتش يا دكتور من عقوق والدين لزنا.. لجواز مصلحة لندالة. إيه يا راجل ده.. إنت تفوقت على إبليس نفسه.. اتصدق بحاول ألاقي في سجلك نقطة بيضة مش عارف.

قال محمود في غضب:

- إيه يا عم الملاك.. أنا بني آدم مش ملاك زيك.. وطبيعي يكون لي تجاوزات وأنا بابني حياتي.

- تجاوزات!! طب يا سيدي أنا حفتح سجلك قرب الأواخر.. يمكن ألاقي النقطة البيضة اللي بدور عليها.. يمكن ألاقي عمل يمسح ده كله.

نظر محمود بتفاؤل وهو يرى الملاك يفتح السجل على صفحة

بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ وبها صورة له وهو يدخل حجرة دكتور صالح بهجت مدير مستشفى «الأمل» آنذاك.

القاهرة – سبتمبر ٢٠٠٣

دخل دكتور محمود ببالطيه الأبيض غرفة مكتب فاخرة حيث كان يجلس مدير المستشفي وعلي وجهه علامات الغضب، قال له محمود بقلق:

- خير يا دكتور صالح؟

قال دكتور صالح بغضب:

- مش خير أبداً يا محمود.

- ليه بس هو حصل إيه؟

- هو صحيح المريض اللي في عنبر ٩ خرجته قبل ما يكمل علاجه؟

- أيوه، لكن طبعاً أنا عملت كده عشان مصلحته.

سأله دكتور صالح مستنكراً:

- وإيه بأه مصلحته في كده؟

- يا بيه ده غلبان جدّاً وما يقدرش يكمل علاجه في المستشفى، فقلت يكمل علاجه في البيت أحسن له.

ضرب دكتور صالح يده على المكتب بعصبية وهو يقول:

- إنت عارف كويس قوي إنه ما يقدرش يكمل علاجه في البيت.. إنت يا دكتور مشيته لأنك اتأكدت إنه مش حيقدر يدفع لك الأتعاب العالية اللي بتطلبها من المرضى بتوعك!

قاطعه محمود قائلاً:

- يا بيه.

- استنى لما أكمل كلامي.. ودي مش أول مرة تتصرف تصرف مشين لا يليق بسمعة المستشفى ولا بالقَسَم اللي أقسمته بعد التخرج، ولولا إنك جوز بنت عبد الفتاح غالب كان حيبقى لي معاك تصرف تاني.

لم تكن هذه أول مواجهة لمحمود مع مدير المستشفى، بل سبقتها مواجهات عديدة ومشاحنات لأسباب مختلفة ولكن في مجملها تمس الأخلاق والضمير، هذا فضلاً عن التجاوزات التي كان يرتكبها محمود دون علم دكتور صالح... هكذا كان محمود يتسلق على كل من حوله، دون أن يرحم أي مريض مهما كانت ظروفه حتى الفقراء منهم والبؤساء... ونسي إنه كان ينتسب إليهم يوماً.

أما سوزان فقد دفنت حزنها في قلبها، وأخذت تحاول أن تتعايش مع إنسان بدا لها أنه غريب عنها تماماً، فحبيبها الذي وقفت

أمام العالم أجمع من أجله أيقنت أنه لم يكن يعيش إلا في خيالها.

وفي يوم كانت سوزان تجلس مع زوجها في حديقة منزلهما، يتصفحان الجرائد أثناء تناول الإفطار، قرأت سوزان خبراً يبدو أنه أزعجها، فالتفتت إلى زوجها قائلة:

- معقول اللي مكتوب على أنكل صالح؟! أنا مش مصدقة.

قال محمود من دون اكتراث:

- مكتوب إيه؟

- إنه عمل صفقة قذرة، وجاب للمستشفى دم ملوث.. إنت كنت عارف؟

أجاب محمود ببرود:

- طبعاً.. أنا مش شغال معاه! هو إنسان طماع.. حب يلعب على كبير وياخد صفقة بنصف تمنها، ويضرب الباقي في جيبه، كان فاكر إنها حتعدي لكن طبعاً ربنا فضحه.. أصل ربنا ما بيرضاش بالظلم.

قالت سوزان باستياء وهي تضع فنجان الشاي على المائدة:

- بس دي حاجة غريبة.. أنكل صالح صاحب بابي أوي، وطول عمره نزيه.. مش معقول يتورط في عمل زي ده.

قال محمود مستهزئاً:

- إيه الهبل ده.. عشان صاحب أبوكي يبقى نزيه؟ والله ما بقى فيه حد شريف في الزمن ده.

قالت سوزان بحدة:

- مش معنى إنك ماتعرفش ناس شرفا يعني الشرفا خلصوا من الدنيا.. عن إذنك.

قامت سوزان من مقعدها واتجهت ناحية مدخل الفيلا، فنادى عليها زوجها قائلاً:

- سوزان.

وقفت سوزان ثم استدارت له وهي تأخذ نفساً عميقاً لتخفف من توترها، ثم أكمل محمود كلامه قائلاً:

- أنا مش حرُد على الكلام بتاعك البايخ ده، لأني مش عايز عكننة دلوقتي.. قبل ما أنسى يوم الخميس الجاي عايز أعمل حفلة هنا بمناسبة قدوم دكتور بيتر ميللر، وعايز الحفلة تليق بمكانتي ومركزي.

قالت سوزان بدهشة:

- هو ده وقته يا محمود؟ ما إنت عارف إن بابي عيان أوي.

- يعني لو ما عملناش الحفلة أبوكي حيخف؟ إيه يا سوزان المنطق الغريب ده؟

مضت سوزان متجهة إلى مدخل الفيلا دون أن تجيب زوجها، وهي في طريقها قابلت ليلى ابنتها وهي قادمة من الداخل وكانت في الرابعة عشرة من عمرها آنذاك، قالت ليلى لأمها:

- مامي، نينَه على تليفون البيت عايزاكي.. وبتقول لك ما بترديش على موبايلك ليه.

قالت سوزان وهي متجهة ناحية باب المدخل:

- أنا حطلع أكلم نينَه دلوقتي.

دخلت سوزان الفيلا والتقطت سماعة الهاتف من على المائدة الجانبية في البهو الرئيسي الفخم وهي تقول:

- ألو أيوه يا ماما.. إزيك يا حبيبتي.

ردت نرمين هانم قائلة:

- أيوه يا سوزي فينك يا حبيبتي، ما بترديش على موبايلك ليه؟

- معلش يا ماما أصلي بشحنه فوق.

قالت نرمين هانم بجدية:

- اسمعي يا سوزي أبوكي عايزك ويا ريت تجيبي معاكي محمود.

- حاضر يا ماما.. لكن طمنيني الأول أخبار صحة بابي إيه؟

ردت نرمين هانم بنبرة صوت قلقة ومتوترة:

- مش حلو خالص، المرض هده وعنده حالة اكتئاب.. خصوصاً لما سمع على د. صالح..

ردت سوزان على أمها أثناء دخول زوجها من الخارج وهي تقول:

- أنا ومحمود جايين على طول يا حبيبتي.. إحنا ما نقدرش نرفض لبابا أي طلب، مع السلامة دلوقتي.

وضعت سوزان السماعة وهي تقول لزوجها:

- زي ما انت سمعت كده، بابي طالب يشوفنا.. وبما إن معندكش عيادة النهارده، أفتكر تقدر تيجي تزوره معايا.

- والله يا سوسو اعتذري لباباكي.. أنا فعلاً نفسي أشوفه، طب تصدقي وحشني جداً، لكن أعمل إيه، عندي اجتماع في المركز.. روحي إنتِ وما تعطليش نفسك وأنا لو خلصت بدري حعدي عليكي هناك.

* * *

وفي المساء كان عبد الفتاح غالب مستلقياً على شيزلونج في شرفة حجرة نومه، وجهه شاحب وقد بدا عليه الإعياء الشديد، وكانت زوجته بجانبه تذيب قرصاً من الدواء في كوب من الماء لتعطيه إياه،

دخلت عليهما سوزان مبتسمة وهي تقول:

- أيوه كده يا بابي.. سيب السرير شوية واقعد في الفرندا.. ده حتى الهوا فريش أوي النهارده.

نظر إليها والدها، وعندما أدرك أنها أتت وحدها دون زوجها، قال بنبرة حزن:

- كنت متوقع إن جوزك مش حييجي معاكي.

قالت سوزان بسرعة وهي تحاول جاهدة أن تجد مبرراً لزوجها:

- والله يا بابي غصب عنه هو عنده اجتماع.. وقال لو خلص بدري حيحصلني.

قال عبد الفتاح بسخرية:

- الغريب إنك لسة بتصدقيه.

قالت سوزان بتوجس:

- فيه حاجة يا بابي.. هو محمود عمل حاجة؟

قال عبد الفتاح غالب بحدة:

- محمود يا سوزي طلع أندل مما تخيلت! تصوري.. كلمت صالح وعرفت منه الحقيقة كاملة.

قاطعته نرمين هانم قائلة:

- عبد الفتاح، مفيش لزوم للكلام ده، هي سوزي بإيدها إيه؟

قال عبد الفتاح بعصبية شديدة:

- سوزي لازم تعرف.. الندل جوزك ورط صالح، هو صاحب الفكرة وهو اللي جاب له الشركة الموردة.. استغل طيبة وسذاجة صالح ولعبها بذكاء، كان حريص إنه ما يورطش نفسه في أي إمضاء وساب كبش الفدا صالح يحط اسمه على كل الأوراق الرسمية.. كان عارف من الأول إن الدم فاسد.. وضرب عصفورين بحجر واحد.. ضرب فرق الفلوس في جيبه وفي الوقت نفسه زاح صالح عن طريقه عشان يتولى هو الإدارة.

بدأ عبد الفتاح غالب يشعر بضيق في التنفس، وأخذ السعال يشتد عليه، ولكنه استمر في حديثه قائلاً:

- بس قولي له أنا مش حسيبه، أنا حديله فرصة يمكن ضميره يصحى ويعترف بالحقيقة للمباحث، لكن لو ده ماحصلش – لأنه طبعا ما عندوش ضمير– أنا اللي حقف له وحقوِّم أكبر محامي يترافع عن صالح.

بدأ عبد الفتاح غالب يشعر بصعوبة التنفس بسبب عصبيته العارمة فارتمت عليه ابنته قائلة وهي تتوسل إليه:

- بابي هدي نفسك، المهم إنت دلوقتي يا حبيبي.. وأنا حوصل لمحمود كل اللي إنت قلتهولي.. وأكيد لو ليه إيد.. حيعترف.

* * *

دخلت سوزان منزلها وهي في قمة الغضب، علّمتها الأيام أن زوجها متسلق ووصولي بل ومعدوم الضمير، ولكنها اليوم أدركت مستوى آخر من دناءته وخسته... وقفت أمام المرآة تسترجع أيامها معه وسألت نفسها: هل يعقل أنها تعيش مع ... ثم توقفت لأنها لم ترد أن تواجه نفسها بالكلمة المناسبة له، لم ترد أن تعترف لنفسها بأن الرجل الذي أعطته نفسها وحياتها وحملت اسمه ورزقها الله منه أولادها... في عينيها الآن مجرم!

جلست في انتظاره تحرك قدميها بعصبية، وأخذت تنظر إلى ساعة الحائط. ثم تمشي ذهاباً وإياباً.. ثم تنظر إلى الساعة مرة أخرى.. وكانت نظرات العبوس تطل من عينيها حتى وصل محمود، وعندما نظر إلى وجهها أدرك على الفور ما بها فقال:

- اللهم اجعله خير.

قالت سوزان بحدة:

- محمود.. إنت لك إيد في قضية أنكل صالح؟

- طبعاً، ده كلام أبوكي.. طول عمره بيكرهني.. ويصورني

الشيطان.. قولي له خليه في اللي هو فيه، ويطلعني من نفوخه بأه.

أكملت سوزان استجوابها قائلة:

- طيب أنكل صالح بيقول ليه إنك اللي جِبت المورد واتفقت معاه؟

- طبيعي د. صالح حيعلق جريمته على حد تاني.. بس لو شاطر يثبت.

- قصدك إيه بكلمة لو شاطر يثبت؟

أدرك محمود أن العصبية هي الحل الوحيد لإنقاذه من هذا الموقف المربك وإنهاء هذا النقاش الثقيل فصاح في وجهها قائلاً:

- إنتِ حتمسكيلي على الواحدة.. يا شيخة أنا جاي تعبان وعايز أنام بأه، ارحميني.. زوجة نكدية ومؤرفة.

هكذا انتهى الملاك من قراءة صفحة أخرى من صحيفة محمود أبو العلا، أغلق الصحيفة وهو ينظر إلى محمود نظرة ثاقبة وهو صامت، فأراد محمود أن يجادله فقال له:

- إنت صدقت إنت كمان إني أنا اللي وردت الدم الفاسد للمستشفى؟

- د. محمود، الملف ده بيقول كده، كل شيء ثابت بالتواريخ وممكن كمان أجيب لك الاتفاق لحظة بلحظة.. أقول لك كسبت كام

جنيه بحساباتك؟ ولا تحب أقولك كررت الصفقة دي كام مرة من غير علم حد؟ ولا أقولك كام عيان مات بسبب صفقات الشيطان دي وغيرها؟ يا أخي ده حتى حماك مات من قهرته من عمايلك.

قال محمود مدافعاً عن نفسه:

- لا يا سيد ملاك.. إنت كده ابتديت تظلمني.. حمايا مات موتة ربنا.... الله يرحمنا جميعاً.

قال الملاك مبتسماً:

- إيه الحنية دي يا دكتور محمود.

ثم فتح الملاك ملف محمود على صفحة مكتوب أعلاها: التاريخ ٦ نوفمبر ٢٠٠٨

كان في أدنى الصفحة صورة لصالون د. محمود، وكان يعج بضيوف من رجال وسيدات. وكانت السيدات بملابس سوداء وتتوسطهن سوزان.

القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٨

كانت سوزان في منزلها تستقبل ضيوفها الذين جاءوا لتقديم واجب العزاء، وكانت الخادمة تقدم لهم القهوة، أما صوت القرآن فكان يعلو عن صوت همساتهم، دخل عليهم دكتور محمود وقال:

- سلام عليكم.

ثم خرج سريعاً وتبعته سوزان.

وعندما دخلا حجرة نومهما قال لها محمود معاتباً:

- لازمته إيه تجديد الأحزان.. أبوكي اتوفى الله يرحمه من سنة.. إيه لازمته بأه العزا دلوقتي؟

- ناس افتكرت بابي يا محمود وجايين يقروا على روحه الفاتحة، أقول لهم لأ؟ أقفل في وشهم الباب؟!

قال محمود ساخراً:

- لأ طبعا ودي تيجي، لازم نقعد نتنكد ونبكي على اللي فات.

سألته سوزان:

- مش حتنزل تقعد معانا تحت شوية؟

- شايفاني يعني ناقص نكد؟

قالت سوزان بهدوء:

- طيب عن إذنك أنا اتأخرت على ضيوفي.

اقترب منها محمود وجذبها نحوه وهو يقول بنظرة كلها شهوة:

- يا شيخة سيبيهم مرزوعين تحت، واقلعي الاسود ده

والبسي لي القميص النوم الاحمر اللي بحبه.. إنتِ وحشاني أوي.

أبعدته الزوجة باشمئزاز وهي تقول:

- إنت إيه يا أخي.. مش قادر تحس إن الوقت مش مناسب.. وحتى لو مناسب.. أنا بقيت أشمئز منك.. أنا لو كنت قاعدة معاك تحت سقف بيت واحد ده بس علشان أولادي.

على الرغم من قسوة الكلام وحدته، فإنه لم يحرك ساكناً في محمود، بل استمر في مغازلتها وأخذ يجذبها بقوة نحوه وهو يقول:

- أكيد مش حهون عليكِ يا سوسو.

صاحت سوزان بعد أن استطاعت أن تفلت منه قائلة:

- إنت ما بتفهمش! بأقولك مش حتلمس شعرة مني.

قال محمود بحدة:

- إنتِ ولية نكدية، وحسيبك بمزاجي ، لكن تفتكري ربنا حيسيبك تمنعني نفسك عن جوزك؟ إحذري لعنة الله!

لقد انقلبت الآية.. وأصبح الظالم يستجير بربه من المظلوم.. ومع ذلك لم تتعجب سوزان من هذا المنطق المقلوب، فهي تدرك جيداً أن زوجها بارع في طمس الحقائق وإظهار الباطل على أنه حق ساطع كسطوع الشمس.

وفي اليوم التالي كانت سوزان تقرأ الجرائد على فوتيه مريح في

صالة المعيشة، وكانت ابنتها ليلى تجلس بجانبها وتتصفح صفحات الإنترنت باستخدام اللاب توب، دخل عليهما أحمد وكان شاباً في العشرين من عمره آنذاك قائلاً:

- مامي ممكن فلوس اشتراك رحلة شرم بتاعة النادي؟

قالت سوزان بهدوء:

- بابا قاعد دلوقتي في أوضة المكتب روح خد منه.

خرج أحمد متجهاً إلى والده، أما ليلى فنظرت إلى أمها بتوجس قائلة:

- ربنا يستر.

وبعد فترة قليلة، سمعت سوزان وليلى صياح الأب بعصبية وهو يقول:

- يا أخي مش لما تفلح في دراستك تبقى تطلب فلوس، ولا خلاص ما فيش في وشك نقطة دم.

اتجهت سوزان مسرعة إلى حجرة المكتب وتبعتها ابنتها، فوجدتا أحمد يقول:

- بابا إنت عارف كويس أوي إني دخلت كلية الطب غصب عني، بحاول أجتهد فيها لكن مقدرش أعمل أكتر من كده.

قال محمود بغِلٍ شديد:

- تبقى خايب وأهبل.. وعلى فكرة بأه يا واد، إنت مالكش سفر خالص لحد ما تجيب نمر عدلة.

نظر إليه ابنه بتحدٍ وهو يقول.

- تفتكر يعني لو حرمتني من السفر حيكون ده الحل؟

استشاط الأب غيظاً، فانتفض وهو يصيح ويضرب بيده الحائط:

- لو ماكنش ده الحل حلاقي حل تاني.

ثم خرج محمود كالثور الهائج من مكتبه وهو يصيح:

- تعرف يا واد الجيتار اللي إنت فرحان لي به ده، حكسره حتت على دماغك.

ثم اتجه إلى الطابق العلوي مسرعاً وزوجته وابنه وابنته من ورائه يتوسلون إليه أن يهدأ.. ولكنه بسرعة اقتحم حجرة أحمد وجذب بشدة الجيتار الموضوع على فراشه، فقال أحمد مستعطفاً:

- بلاش يا بابا.. خلاص مش حطلب من حضرتك حاجة تاني.

لم يأبه محمود لتذلل ابنه وضرب الجيتار بعنف في الحائط فتحطم أشلاءً، ثم خطف محمول إبنه من يده وهو في هياج شديد وهمَّ بأن يلقيه خارج النافذة، فوجد على خلفية شاشته صورة لبنت لا يعرفها، فتمعن فيها، ثم قال بغضب لابنه:

- صورة مين دي كمان يا حيوان؟

قال أحمد في تأثر شديد:

- من فضلك يا بابا هات الموبايل.

قال محمود بنبرة أكثر حدة:

- انطق مين دي.

ثم نظر إلى زوجته بشراسة وقال:

- وإنتِ نايمة على ودانك يا ست سوزان... مش عارفة إن ابنك حبيب.

لم تنطق سوزان بكلمة، فهي لم تكن تتخيل أن ابنها يمكن أن يرتبط عاطفيّاً بأي فتاة دون علمها. فعلاقتها بابنها مبنية على الصداقة وقد عوَّدته منذ صغره على صراحة متناهية، هذا فضلاً عن إدراكها مدى حساسيته المفرطة ورومانسيته وصدقه.. فإذا شعر بعطف ناحية أي فتاة لا بُدَّ أن تكون مشاعره خالصة وجياشة يصعب إخفاؤها.. فكيف لم يبح لها بصاحبة هذه الصورة حتى الآن؟ ثم تراجعت سوزان وقالت لنفسها: مؤكد أن ما يشعر به أحمد لا يزال في بداياته... فليس بمقدوره أن يكتم عني سراً.

أعاد محمود سؤاله لسوزان بلهجة أكثر حدة... إذ وجدها فرصة ليرد على إهانتها له الليلة السابقة فقال:

- انطقي... كنتِ نايمة على ودانك ومش عارفة حاجة عن

حبيبة القلب؟! طبعاً مش لاقية كلام تقوليه.. بالذمة إنتِ أم تؤتمن على أولادها؟

فقال أحمد بتوتر شديد ليدافع عن أمه:

- ماما ملهاش دعوة.

قال محمود بغضب وتهكم:

- طب قول لي إنت يا روميو قبل ما اتجنن، صورة مين دي؟

قال أحمد وقد ازداد ارتباكه:

- دي... دي عبير زميلتي.

قال محمود وعيناه مملوءتان بالغل والغيظ:

- شايفني يا واد أهبل.. هو عادي كده عايزني أصدق إن ممكن بنت محترمة تخلي زميلها يصورها على موبايله من غير ما يكون وراها مصيبة.. انطق قول الحقيقة.

- هي دي الحقيقة يا بابا.. دي بنت كويسة جدًا ومتربية.

قاطعه محمود قائلاً:

- يا اهبل.. دول تلاقيهم ناس كحيانين عايزين يناسبوا محمود أبو العلا.. البت دي حعرف أجيب نمرة أبوها، حكلمه وحقول له يلم بنته.

كان أحمد يدرك تماماً أن بمقدور والده أن ينفذ تهديده... بل ويمكنه تدمير عبير وعائلتها المتواضعة بمنتهى البساطة وبدون أي اكتراث... فحاول أن يستعطفه قائلاً:

- بابا، عبير ما عملتش حاجة غلط.. دي حتى ما تعرفش إني مهتم بيها... أو إني حتى عندي صورتها، أرجوك ما تعملهاش مشاكل.. هي مش ناقصة.

- عليَّ أنا الكلام ده.. دي ألاعيب نسوان، وإنت صيدة سهلة لأي واحدة واقعة يا اهبل.

نظر الابن لأمه نظرة توسل قائلاً:

- ماما من فضلك، حاولي تقنعيه.. بلاش عبير.. مش حسامح نفسي لو بابا كلم أبوها.

شعرت سوزان أنها لا بُدَّ أن تتدخل حتى ولو لم تكن ملمة بقصة الفتاة، فقالت وهي تحاول تهدئة الموقف:

- استنى يا محمود نفهم بس الحكاية إيه.

- الحكاية واضحة زي الشمس يا هانم، أنا مش حستنى لما يجيبوا عيال وأنا واقف اتفرج.

* * *

في صباح اليوم التالي كانت سوزان جالسة وهي تضع يدها على

رأسها من شدة الصداع، دخلت ليلى على أمها قائلة بانزعاج شديد:

- مامي الحقي.. أحمد بيلم هدومه وشكله مش طبيعي! ولما كلمته ماردش عليّ.

اتجهت سوزان مسرعة إلى حجرة ابنها فوجدته يجذب حقيبته بشدة ناحية الباب ليرحل، فقالت له:

- رايح فين يا أحمد بشنطة هدومك؟

قال أحمد متأثراً:

- بابا نفذ تهديده وكلم أبو عبير! النتيجة إنه سحب أوراق بنته من كلية الطب. أبوها راجل على قد حاله، مريض وجاهل.. حرمها إنها تكمل تعليمها رغم إن ما فيش بيني وبينها أي حاجة. وربنا عالم.. ده ظلم.. وياما أنا اتظلمت من بابا.. لكن اللي مش ممكن أقبله إن حد تاني يتظلم بسببه، خصوصاً عبير!

قالت سوزان وهي تمسك بذراع ابنها ودموعها تنهمر من عينيها:

- طب وأنا يا أحمد.. ذنبي إيه تسيبني؟ تظلمني أنا ليه؟

قال أحمد وهو يهم بالخروج:

- سامحيني يا أمي وحاولي تفهميني.. مش حفوتها المرة دي لدكتور محمود.

ترك أحمد أمه وهي تبكي على كتف ابنتها ليلى.

لم يكن أحمد يدري أنه بالنسبة لأمه أكثر من ابن.. إنه كان بمثابة صمام الأمان في المنزل.. الحائط الذي تتكئ عليه كلما أنهكها شطوط زوجها وشروده، منذ صغره وكان يشعر بها وبمعاناتها. أغمضت سوزان عينيها فتذكرته وهو طفل يضع يده الصغيرة عليهما بحنان ويأخذها في حضنه كلما أوجعها حدة زوجها وقسوته... فكان كالبلسم الذي يداوي الجرح كلما فتح مجدداً، أما اليوم كبر أحمد وكبرت معه معاناتهما .. وأصبح غير قادر على أن يصمد طويلاً أمام بطش أبيه.. ولكن يا ترى كم من الوقت ستستغرقه سوزان حتى ينفد صبرها وترحل هي الأخرى كما فعل ابنها... لأول مرة تواجه نفسها بهذا السؤال.. فهي تعلم أن فراق ابنها وقرة عينيها يفوق كل احتمال.

ومرت الأيام، حتى يوم الخميس الموافق ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٨، وكانت حديقة فيلا محمود أبو العلا مزدحمة بالمدعوين، وعلت موسيقى صاخبة تعزفها فرقة موسيقية على حمام السباحة، وكان محمود يمر بين المدعوين للاحتفاء بهم وفي الوقت نفسه كان قلقاً لغياب زوجته الجميلة عن الحفل، فكان ينظر في ساعة يده بين الحين والآخر، وعندما لاحظ ابنته ليلى من بعيد لوّح إليها لتأتي، وعندما اقتربت منه سألها قائلاً:

- ما تعرفيش ماما فين وليه قافلة الموبايل؟

- مش عارفة.. زمانها جاية يا بابي ما تقلقش.

- أنا مش قلقان، أمك زي القطط بسبعة ارواح.. لكن المنظر مش حلو كده أدام الناس.. أقول لهم إيه بس؟

في هذه اللحظة وصلت سوزان إلى المنزل وبدأت بترحيب ضيوفها. اقترب منها زوجها ثم همس في أذنيها قائلاً بصرامة:

- كنتِ فين؟

ردت سوزان بصوت منخفض:

- بعدين، خلينا في ضيوفك مش عايزين فضايح.

جلست سوزان وزوجها مع المدعوين؛ حيث قالت واحدة منهم:

- على فكرة يا دكتور، إدارة المستشفى بقت على أعلى مستوى بعد ما حضرتك مسكت الإدارة.

هز محمود رأسه بكل ثقة، ثم قال أحد الجالسين بحماس:

- إنجازات حضرتك كتيرة جدًا، مش ممكن حد يتخيل إنها اتحققت في خمس سنين بس.

فقال مدعو آخر:

- أكيد مدام سوزان ليها دور كبير، لإن وراء كل رجل عظيم امرأة.

ابتسمت سوزان ابتسامة باهتة، أما محمود فرد ضاحكاً:

- وأحلى إنجازات سوسو إنها بتجمعنا هنا عشان نحتفل بالمناسبة دي كل سنة.

ضحك الجميع، ثم أتت امرأة في العشرين من عمرها بملابس تكشف عن مفاتنها ومالت على محمود وهي تقول بدلع مصطنع:

- د. محمود، عايزة أسألك عن قلبي.. مش حاساه مظبط اليومين دول.. بنهج كتير أوي يا دكتور من أي انفعال.. زي دلوقتي مثلاً.. هو ده طبيعي؟

فقال محمود:

- لأ مش طبيعي طبعاً.. تعالي لي في المستشفى ونعمل لك الفحوصات اللازمة.

لاحظت سوزان حركات الفتاة المبتذلة من غزل خسيس ومصطنع ومتبادل من زوجها.. ولكنها تعلمت من الأيام كيف تواري بكل دهاء ما تشعر به من حسرة وألم واشمئزاز في مثل هذه المواقف حتى تحافظ على ما تبقى لها من كرامة أمام الناس.

بعد أن انقضت الأمسية اتجهت سوزان إلى أعلى لتدخل حجرتها بهدوء، فهي لم تكن على استعداد أن تحتك بزوجها ولو بكلمة... ولكن ناداها زوجها قائلاً:

- سوزان.. إنتِ رايحة تنامي من غير ما تقولي لي كنتِ فين قبل الحفلة.

ردت سوزان بحدة:

- كنت في عزا يا محمود... الحاج سلامة أبو الخير.

قال محمود باستهزاء:

- مين يا ترى الحاج.. يكونش من بقيت عيليتكم؟

قالت سوزان بحدة:

- طبعاً مش فاكر اسمه، الحاج يبقى أبو عبير.. اللي إنت هزأته وهددته لما شُفت صورة بنته على موبايل ابنك من غير ما تفهم أي حاجة.. الأب كان عيان يا محمود ما استحملش أي كلام يتقال على بنته.. الله يرحمه.

- الله يرحمه يا ستي، بتكلميني كأني أنا اللي قتلته، ما كان يلم بنته أحسن.. وبعدين إنتِ تروحي العزا بصفتك إيه؟

- كان لازم أروح يا محمود عشان أبرأ البنت المسكينة دي أدام أهلها لكن للأسف.. رحت متأخر أوي!

قال محمود بحدة:

- وإنتِ مصدقة ابنك الحيوان ده من غير ما تشغلي مخك؟ أكبر دليل على صحة كلامي هروبه من البيت.. طبعاً مش قادر

يواجهني.. خلّيه، بكرة صاحبه يزهق منه ويرميه من بيته وييجي لي زي الكلب، بس ساعتها أنا اللي حرفض إنه يقعد في البيت.

نظرت سوزان بحسرة ثم تمتمت قائلة:

- ما فيش فايدة.

دخلت سوزان حجرتها، أما محمود فأخرج محموله من جيبه ثم اتصل بسكرتيره الخاص قائلاً:

- أيوه يا رفعت، أنا عايزك تُمُر على أسرة المرحوم سلامة أبو الخير وتشوفهم لو محتاجين حاجة.. لأ يا حمار ما تجبش سيرتي، حبعت لك العنوان في رسالة.

* * *

وفي اليوم التالي، وفي مستشفى «الأمل» التي كان يديرها الدكتور محمود، كانت تجلس أمام حجرة العمليات سيدة في الخمسين من عمرها تقرأ القرآن وكان زوجها البالغ من العمر الستين يمشي ذهاباً وإياباً في قلق بالغ، حتى خرج دكتور رشوان من غرفة العمليات قائلاً للرجل:

- والله مش عارف أقول إيه.. إحنا لما فتحنا لقينا الورم انتشر في جزء دقيق من الأمعاء وعلشان يتم استئصاله كله التكاليف حتغلى ٢٥ ألف جنيه على الأقل.. والقرار قراركم أكمل ولا أقفل على كده؟

صاح أبو المريضة قائلاً:

- أجيب منين؟!

وضعت زوجته قرآنها على المائدة ووقفت تترجى زوجها ودموعها تجري من عينيها:

- نبيع هدومنا يا متولي علشان حتة البت اللي حيلتنا.

قال الأب بحزم:

أنا لازم أقابل مدير المستشفى.

اتجه الأب مسرعاً إلى حجرة مكتب د. محمود أبو العلا، حاولت أن توقفه السكرتيرة وهي تقول:

- يا فندم ما ينفعش تدخل على المدير بالطريقة دي، لازم ميعاد الأول.

لم يأبه والد المريضة بكلام السكرتيرة، واقتحم حجرة محمود أبو العلا والسكرتيرة تنادي من ورائه.. ثم صاح قائلاً:

- د. محمود أنا في عرضك.

قاطعته السكرتيرة وهي تقول:

- أنا آسفة يا دكتور محمود، حاولت أمنعه لكن مافيش فايدة!

قال لها محمود وهو يلوح لها أن تترك الغرفة:

- روحي إنتِ دلوقتي.

بعد أن تركت السكرتيرة الغرفة، نظر محمود إلى والد المريضة قائلاً:

- إيه اللي خلاك تدخل مكتبي بالطريقة الغريبة دي؟

قال أبو المريضة بعتاب:

- د. رشوان في وسط عملية بنتي بيقول إنها حتغلى.. أقفل ولا أكمل.. ده اسمه كلام يا دكتور؟

رد د. محمود ببرود شديد:

- وأنا بإيدي إيه أعمله.. الموضوع مش من اختصاصي.. وبعدين يا سيدي دي بنتك، وإنت صاحب القرار.. فيه حاجة تانية عايز تقولها؟

صاح أبو المريضة قائلاً:

- لأ ده انتم عصابة بأه!!

صاح دكتور محمود غاضباً:

- احترم نفسك واطلع بره.. أنا لولا إني مقدر ظروفك كنت اتخذت معاك إجراء تاني.

صاح والد المريضة وهو يبكي:

- حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل... يا دكتور.

الفصل الخامس
من المسئول؟

قال الملاك وهو يغلق ملف محمود أبو العلا وما زال واقفاً معه على الكوبري:

- يلا يا دكتور.

قال محمود بتخوف:

- على فين؟

قال الملاك مستهزئاً:

على الملاهي.. يعني تفتكر واحد زيك حيروح على فين؟!

- يا سيد ملاك ما ينفعش كده، ده منتهى الظلم!

- لسة بتقول ظلم حتى بعد ما شفت عمايلك المهيبة؟

قال محمود مدافعاً:

- طبعاً.. إنت كنت حريص أوي تفتح الصفحات السودا اللي في الملف بتاعي.. لكن ما حاولتش تفتح أول صفحات في الملف لما كنت أنا الضحية، عمرك ما حاولت تعرف إيه اللي خلاني فعلاً أوصل لكده.. أنا لو كنت عشت طفولة سعيدة زي باقي الأطفال.. مستريح، مطمن لبكرة كنت حبقى أكيد إنسان تاني.. كنت حبقى إنسان خيِّر.. وطيب،

وكان دوسيهي بقى حاجة تانية خالص.. تعرف ليه؟ لأن فاقد الشيء لا يعطيه يا سيد ملاك.

قال الملاك وبدأ يمشي ويجذبه معه:

- كلكم بتقولوا كده، بتعلقوا أخطاءكم على شماعة الظروف. يلا يا خويا ماعنديش وقت.. عندي ناس تانية غيرك.

توقف محمود عن المشي قائلاً:

- لأ.. مش ده العدل اللي منتظره في العالم التاني.. افتح الصفحة الأولى من دوسيهي، شوف طفولتي كانت عاملة إزاي.. شوفني وأنا عمري عشر سنين في عز البرد مش لاقي هدمة تدفيني، وأمي بتموت أدامي مش عارف أعمل لها حاجة وأخويا الرضيع يموت من بعديها عشان ما كانش معانا تمن اللبن.

قلَّب الملاك صحيفة محمود أبو العلا، ثم فتحها من أولها على صفحة مكتوب أعلاها تاريخ: يناير ١٩٦٦، وبها صورة لمحمود وهو في العاشرة من عمره وكان بالصورة أيضاً أخته وأبوه وهو مستلق على الحصيرة وقد بدا عليه التعب والإعياء وأخوه الرضيع يبكي جوعاً.

* * *

القاهرة، يناير ١٩٦٦

كان محمود صغيراً في قرية أبو المطامير واقفاً في منزله الصغير

المتهالك، يرقب أخته سعاد التي كانت في الاثني عشر من عمرها وكانت تطهو، وأخوه الرضيع كان يبكي بكاءً شديداً، أما أبوه المريض فكان مستلقياً على الأرض، كان يسعل وعندما هدأ سأل ابنته قائلاً:

- هي أُمِّك لسه ماجتش؟

أجابت سعاد:

- لسه يابا.

ثم عاد يسأل ابنته في فضول:

- إنتِ بتطبخي إيه؟

- هو عندنا حاجة يابا عشان نطبخها؟! دي شربة وبسأسأها في عيش.

قال محمود:

- آبا المدرسة عايزة مصاريف الكتب.

قال الأب وهو يوبخه:

- واد يا محمود، أنا بعلمك عشان تساعدني مش عشان تقرفني كل شوية بمصاريفك.. أمال مجاني إزاي يا خواتي.

نظر الأب إلى ابنه فشعر بالشفقة تجاهه عندما رأى دمعة تجري من عينيه، فقال له:

- معلش يا بني الإيد قصيرة.. أنا حاولت أستلف من كل اللي أعرفهم لكن ما فيش فايدة.. ما قدرتش أكمل مصاريفك.. زمان أمك جاية ومعاها الفلوس.

قال الطفل محمود في استياء:

- محدش بيساعدك يابا من ساعة ما مرضت، وإنت اللي وقفت مع كل ولاد الكلب دول.

قال والده معاتباً:

- ما تقولش كده يا محمود، عيب. الناس يا بني معهاش.. وكل واحد يا بني بيساعد على قد ما يقدر.. لازم تلاقي للناس أعذار، بكرة تتجدعن وتبقى دكتور أد الدنيا وساعتها كل التعب ده حيهون.

انهمر المطر، وبدأ يتخلل السقف المشقوق.. جرت سعاد وغطت أخاها الرضيع بغطاء مثقوب لتحميه من المطر، فقد غلبه النعاس بعدما انفطر من البكاء.. ثم دخلت الأم وكانت تشعر بتعب شديد، وارتمت على الأرض عند الوصول.. ثم قالت بصوت ضعيف.. باكٍ:

- ما حدش رضي يشغلني، كل واحد يقول لي إنتِ تعبانة ما تنفعيش.. البرد دخل عضمي.. أنا خلاص ما بقتش نافعة، أنا حتى ماعنديش لبن أرضع الواد الغلبان ده.

أخذت تبكي بحرقة، جرى عليها محمود باكياً وهو يقول:

- أمة.. مالك يا أمة؟

قال أبوه:

- بدل ما إنت بتعيط زي النسوان اجري حاول تجيب لها الدوا، أو علبة لبن، ولا حتى لقمة عيش ترم عضمها.

خرج محمود متجهاً إلى منزل مدام أحلام بسيدي جابر بالإسكندرية.. تلك السيدة التي خدمتها أمه أكثر من خمس سنوات.. دق جرس الباب ففتحت له مدام أحلام في دهشة قائلة:

- محمود، فيه إيه يا واد؟ إيه اللي جابك؟

قال الطفل محمود وهو يبكي:

- ست أحلام، أمي عيانة أوي ومش قادرين نعالجها.. أرجوكي ساعدينا.

ردت مدام أحلام وهي تدفعه إلى الخارج قائلة:

- هي كل ما أمك تعطس أدفع لها فلوس، مش كفاية فلوس الزفت الكتب بتاعتك اللي بدفعهالك كل سنة؟

قال محمود وهو يستعطفها:

- ده إحنا مالناش غير ربنا وغيرك.

- يا بني لو كانت كل واحدة تشتغل عندي شوية أدفع لها بالمنظر ده كان بيتي اتخرب.

أمسك محمود بملابسها وهو يقول:

- أي حاجة.. هاتي أي حاجة، والله ما عندنا رغيف عيش واحد في البيت.

قالت السيدة باستياء:

- إنت يا واد مالك بقيت عامل زي الشحاتين كده، أنا زهقت من استغلالكم ليَّ.. فاكرين إني قاعدة على تل فلوس؟! كفاية بقى اللي دفعته قبل كده.

ثم أغلقت الباب في وجهه وهي تقول:

- مع السلامة.

عاد محمود إلى المنزل بخفي حنين وكان قلبه يدمى ألماً بسبب قسوة لقاء من ظن أنها ستمد له يد العون.. ولدهشته وجد زحاماً أمام منزله ونساء بملابس سوداء يبكين ويصرخن كالغربان التي تحلق في السماء حول جيفة نتنة ملقاة.. أما أخته سعاد فجرت عليه من بين الحشود وهي تقول:

- أمك خلاص يا محمود.. مش حنشوفها تاني.

نظرت النساء إليه بأسى وحسرة، ثم أخذ يسمع عبارات مثل:

- يا حبة عيني.

- يا حرام.

- لا حول الله يا رب.

لم تُبَرِّد هذه الكلمات نار الغضب التي كانت تأكل قلب الصغير، بل بالعكس فقد زادته اشتعالاً حتى صرخ فيهن قائلاً:

- دلوقتي جايين تواسونا؟! كنتم فين لما كانت أمي بتموت وكنا محتاجين أي مساعدة؟! أنا مش عايز أشوف حد فيكم.. أنا بكرهكم كلكم.

* * *

أنهى محمود قراءته لهذا الفصل من صحيفته وهو واقف على الكوبري الخشبي بصحبة الملاك.. وكان ينظر إلى الملاك وكله أمل أن يتعاطف معه، أما الملاك فوضع ملف محمود تحت ذراعه ثم قال:

- تصدق إني اتأثرت!

فقال محمود بعشم:

- مش قلت لك أنا ضحية.

رد عليه الملاك بسخرية:

- يا عمي، إنت ليه حاسس إنك خروف؟! يعني عايز تقول لي إن كل اللي بيتربوا في ظروف صعبة بيطلعوا أشرار.. بالعكس ساعات بيطلع منهم نابغين وأخيار يفيدوا كل اللي حواليهم.. إنت كائن مخير يا دكتور مش مسير، يلا يا خويا.. ما فيش وقت.

- يعني ما فيش فايدة؟ إنت الظاهر عليك مستقصدني.

قال الملاك مستهزئاً:

- مستقصدك! آه فعلاً أصل كلام في سرك.. بحقد عليك عشان كنت عايز أبقى إنسان عاصي زيك، لكن للأسف طلعت ملاك! يا حبيبي يلا.

أمسك محمود في سياج الكوبري وأخذ الملاك يجذبه ويدفعه في هدوء... أما محمود فأخذ يصيح ويصرخ قائلاً:

- أنا ضحية الظروف.. ده ظلم... ده حرام.

فجأة وقف الملاك وهو يضع يده في أذنيه قائلاً:

- غريبة.. فيه رسالة جاية من فوق.. مش قادر أفهم إزاي.

قال محمود في لهفة:

- الرسالة بتقول إيه الله يخليك؟

- ششش.. خليني أنا أفهم الأول عشان أفَهِّمك.

وبعد فترة وجيزة تنهد الملاك قائلاً:

- اللي بيحصل ده استثناء غريب مش قادر أفهمه.. لكن طبعاً الملايكة بينفذوا الأوامر من غير أي اعتراض.

أخذ الملاك صحيفة محمود وقام بتمزيقها وقذفها أدراج الرياح،

فرح محمود أشد الفرح وقال وهو يتابع بعينيه الأوراق المتناثرة وهي تتطاير بعيداً:

- الحمد لله أنا كان نفسي أعمل كده من الأول.

قال الملاك وهو في غاية الاستياء:

- اسمع يا محمود.. إنت بتقول إن ظروفك هي السبب في تصرفاتك.. إحنا بقى حنغير ظروفك كلها.. ما عدا اسمك.. ورينا يا بطل أفعالك حتبقى ازاي..

- معقول أنا حرجع الدنيا تاني؟

- تصور؟! إنت أول واحد يحصل له كده، بس عشان يكون فيه إنصاف وعدل لما حترجع مش حتفتكر حاجة من حياتك الأولى، ومش حتفتكر أي حاجة من مقابلتنا دي عشان يبقى زيك زي غيرك.. حَنَّزِّلك في نفس الزمان اللي كنت فيه قبل كده، لكن في عيلة مستريحة وسعيدة.. ومسيرنا نتقابل تاني.

الفصل السادس
حياة جديدة

القاهرة، سبتمبر ١٩٧٧

كان محمود أبو العلا في المطار، تحديداً في قاعة انتظار كبار الزوار، وأخته سعاد وأبوه كمال أبو العلا يودعانه، ثم جاء أحد العاملين بالمطار ليحمل لمحمود حقائبه، ثم نودي على الركاب للصعود على متن الطائرة.. أحست سعاد أن وقت رحيل أخيها قد حان، فنظرت إليه بحنان قائلة:

- البيت حيبقى ملهوش طعم من غيرك يا محمود، مافيش حد حيناكف فيَّ، بجد حتوحشني أوي.

قال لها أخوها مداعباً:

- أنا بأه ما حصدق أخلص من زنك عليَّ.

أتى أحد العاملين بمصر للطيران ومعه جواز سفر محمود قائلاً:

- اتفضل على جيت ٢٢ يا أستاذ محمود، الطيارة خلاص حتطلع في الجو.

حضنته أخته باكية ثم جذبه والده إليه وهو يقول:

- محمود ما تنساش.. أنا عايز أرفع راسي لفوق وأتباهى بيك.

- بابي أنا أوعدك إني حجيب أعلى جريدز في جامعة نيويورك كلها.

قال أبوه وهو يملأ عينيه من ابنه:

- نفسي الأيام تمر أوام يا محمود وترجعلي، عشان تيجي تستلم شركاتك، أمال أنا بعمل كل ده ليه يا بني؟

قالت أخته:

- حتوحشني أوي يا محمود، ابقى اكتب لي كل يوم جواب.

وضع محمود يده على شعر أخته يداعبها بحنان قائلاً:

- حتوحشيني أوي إنتِ كمان يا سعاد.

صعد محمود الطائرة، ثم أعلن الطيار عن إقلاع الطائرة وطلب من السادة الركاب ربط الأحزمة والمكوث في المقاعد، نظر محمود إلى النافذة المجاورة وقال في نفسه:

- أخيراً ححقق حلمي وأعيش في أمريكا، بلد الحرية والحضارة.

كان العيش في أمريكا أكبر أمنية لمحمود، فكان على يقين بأن قدراته وإمكاناته أكبر من أن يعيش بها في القاهرة.. كان يعتقد أنه

ليس إنساناً عادياً وأن الله أنعم عليه بامتيازات تفوق البشر... ولكي يحقق طموحاته وينبُغ لا بُدَّ له أن ينتقل إلى أرض خصبة يستطيع فيها أن ينمي مواهبه ويستثمرها... وأمريكا كانت دوماً بالنسبة له هذه الأرض.

وبعد ساعات طوال هبطت الطائرة في مطار كينيدي، ونزل الركاب، وأخذ محمود حقائبه إلى صالة الاستقبال في المطار، وبدأ يشعر بشيء من التوتر حين رأى بعيني رأسه اتساع المطار وكثرة الحشود من كل الأجناس... أحس وقتها بالغربة والوحشة، فتسلل إليه الخوف حتى وجد بين الحشود سيدة تحمل لافتة مكتوباً عليها اسمه (محمود أبو العلا)، وكانت امرأة في الخمسين تلبس كنساء الأمريكان ولكن بملامح شرقية.. اتجه إليها محمود مسرعاً فسألته المرأة:

- إنت محمود أبو العلا؟

أكد لها محمود هويته فقالت له بابتسامة:

- أنا آنتي ميرفت يا محمود، صديقة الأسرة.. أهلا بيك في أمريكا.

صافحها محمود ثم جرَّت معه الحقائب وهي تقول له:

- يلا بينا.

ركب محمود معها سيارتها، ثم قالت له السيدة ميرفت وهي

على عجلة القيادة:

- أنا أجَّرت لك شقة قريبة من جامعتك وبنفس البادجيت اللي اتفقت عليها مع السيد الوالد، وفي الوقت نفسه قريبة من بيتي، وحديك رقم تليفوني عشان لما تعوز أي حاجة تتصل بيَّ على طول.

صمتت برهة ثم قالت بابتسامة:

- محمود أنا هنا بدل ماما.

قال محمود بامتنان:

- مش عارف أشكر حضرتك إزاي على كل اللي عملتيه معايا.

قاطعته قائلة:

- ما تقُلش كده، أبوك صاحب أفضال عليَّ وأنا ما صدقت أرد شيء صغير أوي من اللي عمله معايا.

ثم أردفت قائلة:

- محمود، عازماك يوم الأربع عندي على الشاي.. حعرفك بعائلة مصرية هنا، بنتهم ولاء حتكون زميلتك في الدراسة.

قال محمود بامتنان:

- أنا فعلاً محتاج أعرف ناس هنا.. أشكرك جداً.

قالت له معاتبة:

- ما أنا قلت لك ما فيش داعي للشكر، قول لي أول مكان عايز تشوفه إيه في نيويورك؟

- تمثال الحرية طبعاً، لإني حاسس إني في بلد الحرية والحضارة.. أنا سعيد جدًّا.. أخيراً حعيش مع ناس متحضرة، ناس بتقدر قيمة الوقت، والمجتهد بس هو اللي بينجح.. زهقت بقى من القذارة والزحمة والتخلف.

نظرت إليه السيدة نظرة عتاب وهي تقول:

- يا بني، كل مجتمع وله سلبياته... يمكن المجتمع اللي باهرك أوي كده يكون له مشاكل أكتر بكتير من ناس بُسطا في بلد من بلاد العالم التالت.

- مش قادر أتخيل إنه ممكن يكون هنا فيه مشاكل!

تنهدت السيدة ميرفت وهي تقول:

- آه لو تعرف.. أنا عندي ابن في سنك كده.. من تلات سنين راح كاليفورنيا وفين وفين لما بيفتكر إن عنده أم، أنا بفكر جديّاً أهاجر على أستراليا، أروح أقعد مع أخويا على الأقل حلاقي حد يسأل عليَّ.

- ليه ما تفكريش ترجعي على مصر؟

- يا ريت أقدر ارجع مصر... تعرف أنا لو أقدر أرجع الزمن تاني ما كنتش هاجرت.

صمتت السيدة برهة ثم قالت:

- عارف أكتر حاجة وحشاني إيه في مصر؟

- يا ترى إيه؟

- صوت أم كلثوم.

أخذت تغني السيدة ميرفت وتقول:

- وعايزنا نرجع زي زمان.

فرد عليها محمود بالغناء:

- قول للزمان ارجع يا زمان.

استمرا في الغناء حتى وصلا إلى وسط المدينة، لاحظ محمود تخطيط المدينة المتميز، شوارعها متعامدة ومبانيها فاخرة، وأخذ يتأمل مدينة الأحلام حتى وصولهما إلى المنزل، ثم أعطت السيدة ميرفت مفاتيح السيارة إلى محمود قائلة:

- دي عربيتك يا محمود.. لو عايز تغيرها كلمني ونروح المعرض نغيرها على طول، دي تعليمات السيد الوالد.

أخذ محمود المفاتيح وهو يقول:

- طب حضرتك حترجعي بيتك إزاي؟

- ما تقلقش، أنا عارفة طريقي كويس، خد بالك إنت من نفسك.

وجاء يوم الأربعاء، وذهب محمود إلى السيدة ميرفت في الميعاد، استقبلته استقبالاً حافلاً ثم عرفته بالسيد علاء جوهر وزوجته وابنتهما ولاء، وبعد فترة وجيزة شعر محمود بملل وفتور غير متوقع، لم يجد أي متعة في الحديث مع عائلة مصرية عادية جداً.. إنه في مصر كان يعرف عشرات العائلات والشباب من أرقى الناس ولكنه الآن شديد الاشتياق في التعرف على ما هو غريب عنه وشاهده في التلفاز وشاشات السينما الأمريكية، كان يتوق إلى مصاحبة أمريكيين فيجد فيهم من هم أمثال جون ترافولتا وسلفستر ستالون وأوليفيا نيوتن جون.

وفي اليوم التالي ذهب محمود إلى محطة البنزين لتموين سيارته ولدهشته لم يجد عُمَّالاً في المحطة.. انتظر دون جدوى ثم وجد شاباً يمون بنفسه، فحاول هو الآخر أن يمون بنفسه ولكن لم يتمكن من استعمال ماكينة التموين.. فوقف حائراً حتى أتى الشاب ليسأله قائلاً:

- عندك مشكلة؟

قال له محمود بإحباط:

- مش عارف أموِّن.

ابتسم إليه الشاب ثم قال:

- شكلك غريب عن البلد؟

- فعلاً أنا لسة واصل من أيام.

- إنت منين؟

- من مصر.

رد الأمريكاني باللغة العربية قائلاً:

- مرحباً يا أخي.

قال محمود في دهشة:

- معقول! إنت بتعرف عربي!؟

- نعم أنا عشت في عدة بلدان عربية، في بيروت وفي القاهرة، بابا بيشتغل في السلك الدبلوماسي.. إنت وحدك ولا جاي مع عيلتك؟

- وحدي جاي دراسة في جامعة نيويورك.

بدأ الشاب الأمريكاني في تشغيل الماكينة لمحمود وهو يعطيه التعليمات قائلاً:

- بص يا محمود، ضع الكوينز هنا واضغط على الزر ده، وانت موصل الخرطوم للعربية.

ثم صمت برهة واستطرد قائلاً:

- بكرة السبت مش عايز تتفرج على البلد؟

- أشكرك في واحدة معرفة حتخدني بكرة تفرجني عليها.

قال الأمريكاني بمكر:

- سيدة حلوة؟

رد محمود ضاحكاً:

- لا إنت فهمتني غلط، دي واحدة من معارف بابي.

- إنت عشان تشوف جمال نيويورك لازم تكون مع شباب يا..

قال محمود:

- اسمي محمود.

- وأنا اسمي توني، ودي نمرة تليفوني لو غيرت رأيك وحبيت تتفسح معانا اتصل بيَّ.

- أشكرك.

مضت الأيام متلاحقة واعتاد محمود على الخروج مع توني وأصدقائه بين الحين والآخر، وكان محمود ينبهر بانحلالهم الذي كان يراه قمة الحرية والتحضر.. فكل شاب معه فتاته، يستطيع أن يبوح لها بما يجيش في صدره من عواطف بل يفعل معها كل ما يريد دون خوف أو حتى أدنى خجل.

وفي إحدى هذه المجالس؛ حيث كان محمود مجتمعاً مع توني وأصدقائه كعادته في حانة صغيرة، وقف أحد أصدقاء توني وكان يدعى جون قائلاً بتحدٍّ:

- إيه يا محمود إنت مش حتشرب برده؟ النهارده عيد ميلاد جانيت.

قال محمود معتذراً:

- ما علش أنا قلت لكم قبل كده أنا ما بشربش.

قال توني بصوت نصف سكران مدافعاً عن محمود:

- يا جماعة سيبوا الراجل في حاله.

قال جون:

- هم كل المصريين جُبَنَا كده.. أنا مرة شُفت مصري كان خايف يمسك إزازة البيرة.

ضحك الجميع، فقالت إحدى الشابات بين الأصدقاء وكانت تدعى جانيت:

- أنا عارفة إني غالية على محمود وحيشرب عشاني.

نادى جون النادلة قائلاً:

- واحد براندي هنا لمحمود.

اقتربت النادلة وهي تقول:

- حالاً.

نظر إليها محمود فوجدها غاية في الجمال فسألها:

- إنتِ اسمك إيه؟

قالت النادلة بابتسامة:

- سوزان.

ومضت النادلة واتبعها محمود بنظراته، لاحظ توني نظرات صديقه فقال له في خُبث:

- عاجباك؟

رد محمود تلقائياً:

- دي جميلة جداً!

قال توني بحماس:

- خلاص اتفق لك معاها تقضي معاها الليلة لو حبيت.

قال محمود متخوفاً:

- لأ مش للدرجة دي.

ضحك توني قائلاً:

- أنا بحب أوي براءة الشرقيين وسذاجتهم.

ثم رفع كأسه قائلاً:

- في صحة البراءة.

شرب الجميع نخب البراءة، أما محمود فظل متردداً حتى قال

جون ساخراً:

- مش قولت لكم جبان، وعمره ما حيعملها.

استفز جون محمود بهذه الكلمات فدفعه أن يساير الأصدقاء ويحتسي الخمر.

* * *

فاق محمود ليجد نفسه في منزل غير منزله وعلى فراش غير فراشه.. ويلبس ملابس غريبة تبدو كأنها ملابس امرأة.. فقال وهو في غاية الدهشة والتعب:

- أنا فين؟

دخلت عليه النادلة التي كانت تعمل في الحانة الليلة السابقة وهي تقول بابتسامة ساحرة:

- إنت في بيتي.

لم يتعرف عليها في بادئ الأمر فسألها:

- إزاي ده حصل؟

قالت له ببراءة:

- إنت سكرت خالص امبارح، صحابك سابوك، ما خلصنيش أسيبك لوحدك فأخدتك معايا.. إنت اتضايقت؟

- لأ.

ثم لاحظ محمود إنها تتكلم بالعربي فقال بدهشة:

- إنتِ بتتكلمي عربي؟

جلست سوزان على طرف الفراش وهي تقول:

- ماما من أصل لبناني وعلمتني شوية عربي لغاية ما..

صمتت سوزان فقال لها محمود:

- كملي.

- لا ما تخدش في بالك.. مش عايزة أجيب لك صداع بحكاياتي.

وضع محمود يده على رأسه قائلاً:

- أنا فعلاً حاسس بصداع غريب.

- ما تقلقش، دلوقتي حتفوق وتبقى كويس أوي، اشرب القهوة دي من إيدي.

نظر إلى وجهها الجميل، فتعرف عليها فقال:

- إنتِ سوزان، مش كده؟

وضعت سوزان يدها على كتفيه وهي تقول بفرح:

- أيوه يا حبيبي.. أخيراً افتكرت.

ارتعد قلب محمود بعد سماع كلمة (حبيبي)، ثم نزع يدها من على كتفيه برفق وهو يقول بدهشة:

- حبيبك! هو حصل بينا حاجة امبارح؟ أنا أصلي مش فاكر أي حاجة.

- امبارح كانت أحلى ليلة في حياتي.

وقف محمود فجأة وهو منزعج، لم يكن انزعاجه بسبب تدينه أو مبادئه التي نشأ عليها فحسب ولكن لأنه لم يكن يتخيل أن يخوض في علاقة مع فتاة لم يرها إلا ثواني معدودة... كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ كيف لا يتذكر أي شيء من ليلة أمس؟ فمن الواضح أنها فتاة ليل، ليس لديها أي مانع في سحب شاب وراءها وقضاء ليلة معه... أما هو فمن عائلة كبيرة ومحافظة هذا فضلاً عما رسمه لنفسه من نجاح وسمو فلا يمكنه أن يسقط أو أن يورط نفسه في مثل هذه العلاقات الرخيصة العابرة، فكل خطوة لا بُدَّ أن تكون بحساب، وكل علاقة لا بُدَّ أن تكون لها غاية وهدف... أجل، إنها الخمرة اللعينة التي تُذهب العقل هي سبب سقوطه العابر... خطأ البارحة لا يمكن أن يتكرر.. لا يمكن أن يسكر حتى الثمالة بعد اليوم.

نظر محمود إلى سوزان بأسف ثم قال:

- أنا آسف ولازم امشي، من فضلك هاتي لي هدومي.

أعطت له ثيابه الموضوعة على الكرسي المجاور للفراش ثم سألته بلهفة:

- مش حشوفك تاني؟

قال محمود وهو متجه نحو الباب بسرعة بعد أن ترك بعض النقود على الفراش:

- ما فتكرش.

الفصل السابع
سقوط

ومرت الأيام والشهور، كان محمود خلالها مواظباً على دراسته ويعمل بدأب ليحقق أمل أبيه فيه، ولكن ومع الوقت بدأ يفتر حماس محمود، وتجاهل دراسته تدريجيا حيث ازداد ارتباطه بتوني وأصدقائه، وتبدلت غايته، فبعد ما كان مبلغ همه التفوق في جامعته كما وعد أباه، أصبح الشيء الوحيد الذي يؤرقه هو عداوة جون له الذي كان يشعره دائماً بأنه الأقل، وأنه ليس أهلاً لصداقة الأمريكان لأنه ببساطة مهما ارتقى فجذوره من العالم الثالث.. ودفعت عنصرية جون واستفزازه المتواصل لمحمود إلى المحاولة الدءوبة لمحمود لإثبات أنه أفضل منه، بل أفضل من أي أمريكاني على وجه الأرض.. وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً في علاقته مع النادلة سوزان، فعلى الرغم من قناعته التامة بأنها لا تليق به، ولا بُدَّ ألا يقيم معها أي علاقة من أي نوع.. فإنه تراجع عندما علم أنها شغفت بجون حبّاً وولعاً، فاستلذ الفوز بقلبها وشعوره بأنه المفضل على ذلك الأمريكاني المغرور.

وقد حرص توني على وجود محمود معه في كل المناسبات، فعرّفه بكل من كان يتعامل معه إلى حد أنه عرفه بمايسون، رجل الأعمال الغامض والملياردير الذي كان يعرض على توني وأصدقائه في

الخفاء المخدرات والأفيون بأسعار زهيدة، ومع الوقت ازدادت صداقة محمود بمايسون على الرغم من امتناع محمود من تناول أي نوع مخدر يتداوله ذلك الملياردير الغامض.. وكانت هذه الصداقة غير مفهومة لتوني وأصدقائه، أما محمود فكان يرى في هذه الصداقة إثباتاً لهم بإنه الأعلى والأقوى والأهم.

وفي يوم كان محمود ممدداً على الأريكة في حجرة معيشته الصغيرة بنيويورك، وقد بدا عليه الإرهاق، كان هذا في خريف ١٩٧٩، وكان محمود يقرأ رسالة من أخته سعاد حيث كتبت الآتي:

"وحشتني أوي أوي يا خويا، مش قادرة أصدق إنه فات سنتين على بعادك.. معقول يا محمود؟ مش قادر تاخد أجازة لغاية دلوقتي حتى عشان تحضر خطوبتي، إنت واحشنا كلنا يا محمود خصوصاً بابي حيتجنن عشان يشوفك.. ابقى كلمه يا محمود.. على فكرة أنا حكيت لمختار عنك كتير، وأنا متأكدة إنك لما تشوفه حتحبه أوي".

في هذا الوقت دق جرس الهاتف، فقام محمود والتقط السماعة فإذ بالسيدة ميرفت تقول له:

- أيوه يا محمود.. أنا آنتي ميرفت، بقالك كتير ما بتسألش عني، قلت أسأل أنا.

قال محمود بتأفف:

- معلش يا طنط.. أصلي مشغول في الدراسة على الآخر.. إنتِ عارفة الامتحانات ما بترحمش.

قاطعته السيدة ميرفت قائلة:

- محمود ما تحولش تضحك عليَّ.. أنا قابلت ولاء جوهر النهارده.. وقالت لي إنك مش منتظم في الجامعة بقالك فترة... ممكن أعرف السبب؟

قال محمود بتردد:

- نسيت أقول لك يا طنط إني كنت عيان الفترة اللي فاتت، عشان كده عندي امتحانات ومشاريع أعوض فيها أعمال التيرم اللي فاتتني... مش كفاية أسئلة بأه؟

- أوام زهقت من أسئلتي يا محمود؟! أنا مش مستريحة ومش عارفة حقول للسيد الوالد إيه لما يسألني عنك.

قال محمود بنبرة حادة غريبة على مسمع السيدة ميرفت:

- يا آنتي ميرفت، أنا زهقت من حركات المصريين بتاعتك دي، عايزة جنازة وتشبعي فيها لطم.. أوف.

قالت ميرفت بصوت باكٍ:

- آسفة يا بني يظهر إني ضايقتك، مع السلامة.

* * *

القاهرة، ١٩٨٣

كان كمال أبو العلا راقداً على فراشه وقد بدا عليه الإعياء، قامت سعاد ابنته لتناوله الدواء وهي تقول:

- أنا اتفقت مع مختار إننا نستنى معاك.

- مافيش داعي تضايقي جوزك أكتر من كده، وروحوا بقى على بيتكم.

- بابي، مختار نفسه قاللي إنه عايزنا نقعد لغاية ما إنت تخف.

- مش عارف يا بنتي إذا كنت حخف ولا الأجل قرب.

- يا بابي بلاش اليأس ده.. إنت طول عمرك متفائل.

- الموت علينا حق يا سعاد، لكن أنا كل اللي خايف منه إني أموت قبل ما أشوف أخوكي، هو لسة ما فيش أخبار من محمود؟ كل مرة أبعت له فلوس تذاكر الطيارة عشان بيجي أجازة وبرده ما بيجيش، حد يطمني عليه.. طب أسمع صوته.

- بابي اطَّمِن.. هو كويس أوي، هو بس تلاقيه معندوش وقت، إنت عارف إنه بياخد كورسات في الصيف عشان يخلص بسرعة، ويعوض التأخير اللي اتأخره في الدراسة.. ما إنت عارف يا بابي المنافسة هناك شديدة.

- الله يكون في عونه.

رددت سعاد بصوت خافت:

- الله يكون في عونا جميعاً.

لم تستطع سعاد أن تحكي لأبيها ولا حتى لزوجها عن أنباء أخيها محمود، لقد قامت السيدة ميرفت بالاتصال بها منذ أيام وأبلغتها بأن أخاها قد تم فصله من الجامعة لسوء سلوكه حيث كان يتاجر في الممنوعات داخل أسوار الجامعة!

في هذه الأثناء وفي النصف الآخر من الكرة الأرضية كان محمود يجلس مع توني وجون في نفس الركن الصغير من الحانة التي اعتادوا أن يتسامروا فيه كل يوم تقريباً.. كانت أصواتهم تعلو بالغناء والضجيج، فكانوا جميعهم سكارى إلا محمود.

أتت سوزان ووضعت على مائدتهم مزيداً من الويسكي، وكانت تنظر إلى محمود نظرة حالمة آسرة، فأمسك جون يدها وجذبها نحوه بقوة وهو يقول:

- النهارده إنتِ بتاعتي.

فدفعته سوزان بقوة وابتعدت عنه، فتتبعها جون وأمسكها من ذراعها وهو يقول:

- إشمعنى المصري القذر؟! هو زوقك زفت كده ليه؟

لم يستطع محمود أن يتحمل إهانات جون المتكررة فقام ولطمه لطمة على وجهه قائلاً:

- المصري القذر حيربي أمثالك، وإياك أشوفك تلمس شعرة منها مرة تانية.

قام الجميع ليحولوا بينهما ووقف الشجار، فقال جون بغضب:

- ده لو قعدت في البلد.. إنت إقامتك مابقاتش صالحة من ساعة ما اترفدت من الجامعة وأنا اللي حبلغ عنك!

* * *

لم تمر أيام إلا واجتمع الأصدقاء في حديقة صغيرة بنيويورك لحضور حفل زفاف محمود بسوزان، كانت سوزان بفستان عرسها الأبيض تشبه إلى حد كبير الملائكة، فكانت ابتسامتها ساحرة وفرحتها تضفي على عينيها بريقاً أخاذاً، كانت تراقص عريسها رقصة تلو الأخرى، وكأنها فراشة تطير بين الأزهار، ثم اتجه العروسان إلى البوفيه، فاقترب توني إلى محمود وهمس في أذنيه قائلاً:

– برده مش مقتنع إنك تتجوزها.. ما كنتم عايشين مع بعض عادي إيه اللي جد عشان تتجوزها رسمي؟

أخذ محمود توني خطوتين بعيداً عن سوزان ثم قال بصوت خافت:

- يعني مش عارف؟ دي أحسن طريقة أضمن بها قعادي رسمي في البلد، وما يجيش صعلوك زي جون يهددني.

قال توني باستنكار:

- إنت صدقت إن جون ممكن يبلغ عنك؟! يا بني ليلتها كان سكران ومش عارف بيقول إيه.

قاطعه محمود بحدة قائلاً:

- أنا إيه اللي يضمن لي إنه مش ح يسكر تاني ويبلغ عني بجد؟ خليني كده في الأمان أحسن.

أتت سوزان إلى محمود وهي تشاور بفرحة لضيف - بدا عليه الهيبة والأناقة وهو يدخل من بوابة الحديقة - وكان في الخمسين من عمره.. ثم قالت سوزان لمحمود:

- حبيبي، شوف مين جانا يشارك فرحتنا؟

ثم جرت نحو الضيف لتجذبه من ذراعه وتقدمه إلى محمود قائلة:

- محمود هو ده ألبرت ماكنزي اللي ياما حكيت لك عنه.

قال محمود بابتسامة:

- طبعاً فاكر، صاحب شركة ماكنزي وودز لصناعة الأثاث.

قال ألبرت ماكنزي بإعزاز:

- وأهم من كده أبو سوزان الروحي، وعلى فكرة بعرف أتكلم عربي.

- فعلاً سوزي قالت لي كده، بس دي حاجة غريبة أوي، أول مرة أشوف أمريكاني بيعرف يتكلم عربي من غير ما يزور أي بلد عربي.

- تعلُم اللغات هواية عندي من وانا صغير، وبالذات اللغات الشرقية.

قالت سوزان بفرحة وهي تضع يدها على كتف ماكنزي:

- أنا مش مصدقة إنك قدرت تيجي من لوس أنجلوس.

قال ماكنزي بحنان لسوزان:

- عشانك يا سوزي آجي من آخر الدنيا، كان لازم اشوف الفارس العربي اللي وقعك في حبه بالشكل ده.

قالت سوزان وهي تنظر إلى حبيبها بعشق شديد:

- إنت كمان يا ألبرت لما تعرفه حتحبه أوي.

قال ماكنزي بهدوء:

- حنشوف.

بدأت الموسيقى من جديد، وأخذ محمود عروسته للرقص مرة أخرى وقُرْب نهاية الحفل، دخل رجل نحيف، يرتدي نظارة شمس تخفي جزءاً من ملامح وجهه الشرسة، وفي يده سيجار، يختال في مشيه بين رجاله الشداد الغلاظ، وعلى الرغم من معرفة معظم الحاضرين بشخصه، لم يرغب أحد من الاقتراب منه. كان هذا الرجل هو مستر مايسون الملياردير.. اتجه مايسون إلى العريس قائلاً:

- مبروك يا محمود.

قال له محمود بحماس:

- شكراً مستر مايسون، أنا حاولت أتصل بك كتير لكن..

قاطعه مايسون قائلاً:

- يا بني، مش أي حد يقدر يوصل لي في أي وقت... أنا اللي أقرر أكلم مين وإمتى وازاي.

شعر محمود بشيء من الحرج ولكن سرعان ما بدد مايسون هذا الشعور السلبي وهو يقول بصوت عال:

- عارف هدية جوازك حتكون إيه؟

تزاحم عليهم المدعوون ثم قال محمود بفرحة:

- إيه يا ترى؟

- تذكرتين لجزيرة هاواي والإقامة الشاملة كمان عليّ.

حضنه محمود وقفز من الفرحة في وسط تهليل الجميع.

* * *

وانقضى اليوم، وأخذ محمود عروسته إلى منزلها الذي جهزته ليكون عشاً للزوجية، وحملها إلى غرفة نومهما وهو يقول لها:

- حاسس وكأنها أول ليلة لينا يا سوزي.

قالت له بحنان جارف:

- بحبك يا محمود، وأوعدك إني حعمل كل ما في وسعي عشان أخليك أسعد زوج في الدنيا.

اقترب محمود منها، ولكنه فجأة سمع دقاً على الباب فقال بتأفف:

- معقول يكون في حد بايخ كده؟!

قام محمود متكاسلاً ثم فتح الباب فوجد توني.. فحاول أن يغلق الباب في وجهه قائلاً:

- ما فيش حد في البيت.

قال توني في جدية تامة وهو يدفع الباب عنه:

- محمود اسمعني، لازم أقول لك الكلمتين دول.

فتح محمود الباب وهو يقول:

- عايز إيه يا زفت، خلصني.

– محمود أنا مش مطمن من مستر مايسون، مش طبيعي بعد ما قطع معاك المدة دي كلها، فجأة يظهر ويديك تذكرتين طيارة وإقامة هدية، ده كل شيء عنده وله تمن.. أكيد وراه مصيبة.

– شكراً على النصيحة عن إذنك.

دفعه محمود مرة أخرى خارج المنزل فقال توني:

– يا محمود افهمني، أنا فعلاً خايف عليك.. ما تنساش إنه كان السبب إنك اتفصلت من الجامعة، يا عالم حيكون وراه إيه تاني.

– يا بني أنا اتفصلت من الجامعة عشان ما اخدتش حذري.. لو مايسون إداني فرصة تانية شوف أنا ممكن أعمل إيه... حكون أحسن منكم كلكم.

قال توني في ندم:

– تعرف، أنا بحس بتأنيب ضمير إني عرَّفتك بيه... إنت ما كنتش كده قبل ما تشوفه، وخللي بالك إنت كده بتلعب بالنار، مايسون واللي زيه ما بيرحموش.

– خللي في وشك نقطة دم، هو ده وقت نصايح؟! امشي بأه مع السلامة.

قال توني في يأس بعد أن أغلق محمود في وجهه باب المنزل:

– اللي يشوفه كده يقول إنه ملهوف عليها أوي وبيحبها.. الواد

ده ضيّع نفسه.

* * *

ومرت الأيام... وفي مساء ذات يوم كان محمود مستلقياً على الشيزلونج في بيت سوزان في ساعة متأخرة، دخلت عليه سوزان وكان يبدو على وجهها الإعياء بعد يوم طويل وشاق ولكن عندما رأت زوجها سرعان ما وضعت ابتسامة حنونة على شفتيها، فقال لها بتأفف:

- ما بدري.

قالت سوزان بحنان لتستعطفه:

- حبيبي إنت عارف إني بشتغل، غصب عني، لو عليّ كنت أفضل جنبك على طول.

ثم نظرت إليه في دهشة وقالت:

- محمود إنت لسة بنفس اللبس من امبارح؟! معقول كده؟ تفضل قاعد القاعدة دي ٢٤ ساعة!! إنت ما خرجتش النهارده ولا إيه؟

قال محمود في أسى:

- أخرج أروح فين وأنا ماعييش يكمل عشرين دولارز في جيبي.

قالت سوزان باضطراب:

- يا حبيبي أنا آسفة، كان لازم أسيب لك فلوس.

ثم فتحت حقيبتها قائلة:

- عايز كام حبيبي؟ فلوسي كلها تحت أمرك.

قال محمود في غضب وهو يأخذ منها كل ما لديها من مال:

- أنا مش معقول ح اقعد عالة عليكي... أنا ما قدرش أستحمل كده.

وضعت سوزان يدها عليه برفق قائلة:

- أنا ياما اتحايلت عليك يا حبيبي تيجي تشتغل معايا في الحانة.. صاحب الحانة ماعندوش أي مانع... إنت دايماً اللي بترفض.

قال محمود بحدة:

- يا سلام، أشتغل ودمي يتحرق كل ما شوف حد بيعاكسك.. إنتِ نسيت إني اللي بيجري في عروقي دم شرقي؟! ثم أنا ما بحبش أشتغل عند حد، أنا عايز أشتغل حر، ولو في يوم فكرت أشتغل عند حد.. لازم العائد يكون مجزي جداً، مش تقولي لي الحانة الفقرانة بتاعتك... أكيد مستر مايسون حيكلمني، هو الأمل الوحيد ليَّ.

قالت سوزان في ضيق:

- إنت بتقول كده من ساعة ما اتجوزنا.. مايسون حيتكلم وحعمل معاه مشروع، لكن يا حبيبي ده مش بيرد حتى على تليفوناتك.

قال محمود بعصبية:

- عايزة تقولي إيه؟ إنه مش مهتم بيَّ؟! لأ بأه ده أنا عنده

حاجة كبيرة أوي... إنتِ نسيتي هدية جوازنا الغالية.

قالت سوزان بتعجب:

- لأ مش ناسية، بس الراجل مايسون ده مش قادرة أفهمه.. مش عارفة ليه بيتجاهلنا دلوقتي وإحنا في أمس الحاجة ليه.

صمتت سوزان برهة ثم لفت ذراعيها حول زوجها وهي تقول:

- حبيبي إحنا ليه ما نرجعش مصر؟ إنت بتقول إن باباك صاحب شركات كبيرة ومبسوط. أنا مستعدة أروح في أي مكان لو ده حيسعدك.

تنهد محمود ثم ابتعد عنها قليلاً وهو يقول بأسى:

- يا سوزي افهمي، أنا مطرود من الجامعة.. ما قدرش أبدا أوري وشي لأبويا، أروح أقول له إيه بعد ما ضيعت كل الفلوس اللي بعتها لي وفشلت؟! ما قدرش.

- بس أنا فهمت من جوابات سعاد أختك إنه تعبان أوي وفي أيامه الأخيرة، ومحتاجك جنبه، أكيد وهو بالحالة دي حيسامحك.

- إنتِ مش فاهمة حاجة.. سعاد بتقول كده بس عشان عايزاني أرجع بأي تمن وبأي وسيلة.

- حتى لو كان مش عيان، برده حيسامحك يا محمود.. اللي بيحب بيغفر.

قاطعها محمود قائلاً:

- كفاية بأه كلام أفلام... أنا محتاج فرصة، فرصة واحدة وحتشوفي مين محمود أبو العلا.

ومرت الأيام متشابهة متلاحقة... كانت سوزان تعمل في الحانة حتى وقت متأخر من الليل، أما محمود فكان في انتظار مكالمة مايسون دون جدوى.. كان يخرج أحياناً لينتقل بين المحلات والحانات لقتل بعض الوقت ثم يعود إلى المنزل ليتمدد على الشيزلونج من جديد ويشاهد التلفاز وهو يشعر بمنتهى الملل، وفي يوم عادت سوزان إلى المنزل كعادتها ولكن كان وجهها مشرقاً وبدت عليها الفرحة، دنت من زوجها وقبلته وهي تقول:

- عندي خبر النهارده بمليون دولار.

قال محمود بصوت نصف نعسان:

- اعملي لي نسكافيه الأول.

- استنى بس لما أقول لك.. النهارده كلمني ألبرت ماكنزي يسأل علينا، ولما حكيت له على أحوالنا، وقد إيه إنت صعبان عليَّ من غير شغل، وإنه صعب عليك إنك تشتغل معايا في الحانة، لإنك يا حبيبي دمك حامي وبتغير عليَّ من أي حد... عارف اقترح عليَّ إيه؟

- يا ترى إيه؟

- قال لي إنه مستعد يسلفنا مبلغ كبير عشان تبتدي بيه مشروع.. أي مشروع.. بس هو طالب يشوفك الأول.

اعتدل محمود في جلسته وهو يقول:

- يشوفني.. ليه؟

- أكيد عايز يسألك على نوع المشروع اللي حنستثمر فيه الفلوس وده طبعاً من حقه.. أنا بقترح تعمل مطعم.. مطعم على طراز فرعوني أو عربي.. ونقدم فيه أشهى الأكلات الشرقية الجميلة.

قال محمود بتردد:

- بس أنا ما عنديش أي خبرة في المجال ده يا سوزي.

وضعت سوزان يدها على كتفيه وهي تقول بحنان:

- ولا يهمك، أنا معاك يا حبيبي، هو أنا رُحت فين... أنا حسيب شغلي وحقف جنبك، وليَّ أصحاب في البيزنيس ده، وأكيد مش حيبخلوا علينا بالنصيحة أو المساعدة، تعرف، أنا حاسة إن المطعم بتاعنا ح يكون أحسن مطعم في نيويورك.

هكذا كانت سوزان.. تؤمن بزوجها إلى أقصى حد وتدعمه، ويمكنها أن تراهن على حياتها من أجله.

* * *

سافر محمود إلى لوس أنجلوس لمقابلة ألبرت ماكنزي، دق قلبه

خوفاً وقلقاً من المقابلة ونتائجها.. كان يأمل أن تكون هذه هي الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن ليثبت نفسه على هذه الأرض.

اتجه محمود إلى صرح ماكنزي وودز للأثاث، وبعد أن أدخلته السكرتيرة إلى غرفة المكتب الفخمة ، رحب ماكنزي بمحمود وأجلسه، ثم قال له:

- محمود عارف ليه أنا حسلفك مبلغ كبير زي ده على الرغم من إني مش مغرم بك بصراحة؟

صمت محمود فأكمل ماكنزي حديثه قائلاً:

- عشان سوزان، وليَّ طلب واحد عندك.

- اتفضل، أنا تحت أمرك.

- سوزي.. خد بالك منها، إوعى تجرحها في يوم من الأيام.. إوعدني يا محمود.

قال محمود بابتسامة:

- أوعدك.

- يبقى اتفقنا، ندخل في الشغل بأه.. قول لي إيه المشروع اللي عايز تعمله وعايز فيه رأس مال قد إيه؟

* * *

عاد محمود وكان قلبه يرقص فرحاً بعد أن أبرم اتفاقاً رائعاً مع

ماكنزي، فقد أخذ منه مبلغاً لا بأس به ليبدأ المشروع، وبدأ في وضع حجر الأساس، وأفنت سوزان نفسها لتقديم كل مساعدة حتى يرى مشروع زوجها الشمس، لم تضن عليه بأي مجهود من تقديم نصائح لدراسة جدوى لتعيين الموظفين وإيجار المكان إلى آخره من خدمات حتى افتتح مطعم إيسترن سنت، وفي غضون أعوام قليلة حقق سمعة طيبة في المنطقة.

* * *

نيويورك، مارس ١٩٨٧

كانت سوزي جالسة على الكاشير داخل المطعم وهي في شهرها الثامن من الحمل، لاحظت زوجها وهو يلاطف واحدة من الزبائن فاشتعلت نار الغيرة في قلبها، خاصة أن السيدة التي كان يلاطفها أنيقة وشديدة الجاذبية.. اتجهت إليه مسرعة فإذا بالسيدة تقول لزوجها بدلع:

- قد إيه إنت ظريف أوي يا محمود.. أنا حقول لك على سر، أنا باجي المطعم مخصوص عشان أشوفك.

فقاطعتهما سوزان قائلة:

- محمود، طربيزة ٤٥ عايزاك، اتفضل شوف طلباتهم.

قال محمود باستياء:

- ما تروحي إنتِ يا سوزي، أو أي حد من الجارسونات، أنا مشغول مع الهانم.

ردت سوزان بحدة:

- ما ينفعش يا محمود، اظاهر مشكلة إدارية وعايزينك إنت بالذات.. واطمن، أنا حشوف طلبات الهانم بنفسي.

ثم نظرت إلى السيدة وهي تقول:

- حالاً مدام، حطلب لك الحساب.

عاد محمود مع زوجته إلى المنزل، وكان الصمت يلازمهما طول الطريق... وعندما دخلا صالة المعيشة، رمت سوزان حقيبتها على الشيزلونج بعصبية، فقال لها محمود بغضب شديد:

- ما كنش ليها لازمة تحرجيني مع مسز إدواردز النهارده بالشكل ده.

قالت سوزان بغيظ شديد:

- يا سلام، تفتكر إني مش فاهمة الغزل والمعاكسة بتاعتها؟

- يا عبيطة لازم نستحمل الزباين، وبعدين إنتِ عارفة إن جوزها هو اللي بيورد لنا اللحوم بسعر خرافي، مش من الذكاء إننا نخسرها.

قالت سوزان بعين دامعة:

- يا محمود، أنا ابتديت أشعر إنك بتضيع مني مع كل سنت شيك بتدخل علينا المطعم، أشوف نظراتك ليهم وأنا عمالة أتخن كل يوم أدام المرايا عشان الحمل وما فيش حاجة في إيدي أعملها.

قال محمود بعصبية:

- إنتِ السبب، أنا قلت لك ميت مرة إننا مش جاهزين للأولاد دلوقتي ولازم تنزليه، وإنتِ عاندتي وركبتي دماغك، اشربي بأه.

اقتربت سوزان من زوجها بحنان ثم وضعت يديها على كتفه قائلة:

- لازم تفهمني يا محمود، ما كنش ممكن أنزل حتة منك، ما قدرش، أنا بحبك ونفسي يكون لي منك ابن أو بنت ياخد عنيك، شفايفك، نظرتك.

أنزل محمود يدها بحدة ثم تركها.. فجرت وراءه قائلة:

- حبيبي افهمني، أنا بعمل كده عشان بحبك.

قال محمود باستياء:

- حبك بيخنق، أنا خارج أشم شوية هوا.

أخذ سترته وترك البيت.. ثم مد بصره إلى السماء.. كان يشعر أنه طير يريد أن يحلق إلى أعلى، ولكنه مكبل بطوق من حديد.. هذا القيد اللعين فرضه زواجه البائس... ثم إن السجانة نفسها لم تكن تحلم

بهذه الزيجة.. كيف تتطلع إلى أكثر من ذلك؟ كيف تأمل أن تكون أماً لأولاده؟ فتضع عليه مزيداً من القيود والأحمال، إنه كالنحل يريد أن يرتشف من كل زهرة رشفة، لأن كل زهرة لها مذاقها الخاص.. لماذا يدفن مع إحدى الزهور التي فقدت مذاقها منذ زمن وبدأت في ذبول وأفول؟! هذا ليس عدلاً ولا إنصافاً!

ومر شهر وجاء وقت مخاض سوزان، حاولت أن تتصل بزوجها دون جدوى، فجرت إلى منزل جارتها مسز آدمز لتُسعفها، ولكن ومع الأسف لم تجدها، فاتجهت وحدها بسرعة إلى أقرب مستشفى، وعند دخولها طلبت من الممرضة أن تتصل بمحمود وأعطتها رقم الهاتف، ولكنها لم تجده في المطعم ولا في المنزل.

وفي هذه الأثناء دخل محمود منزله ومعه إحدى صديقاته وكانا في غاية الانسجام، وعندما سمع دق جرس الهاتف، طلب من صديقته ألا ترد.. وبعدها بفترة وجيزة دقت جارتهما مسز آدمز – التي كانت تربطها بسوزان علاقة ود وصداقة على الرغم من فارق السن بينهما – جرس الباب، ولما فتح لها محمود الباب قال لها في استياء:

- أهلاً مسز آدمز، أي خدمة؟

- محمود، ابني جو قال لي إن سوزان سألت عليَّ.. يا ترى هي موجودة؟

- لأ هي مش موجودة، عندها شيفت في المطعم.. عن إذنك مسز آدمز، أصلي مشغول شوية ومستعجل.

سمعت مسز آدمز صوت سيدة قادماً من الداخل وهي تقول:

- محمود.. أتأخرت ليه حبيبي؟

فقالت مسز آدمز بفضول شديد:

- بيتهيألي فيه صوت جوه.

رد محمود في عجل وهو يغلق الباب في وجه مسز آدمز:

- بيتهيألك مسز آدمز.. أكيد ما فيش حد جوه، مع السلامة.

همست مسز آدمز قائلة:

- مسكينة سوزان.

* * *

وضعت سوزان حملها وولدت ولداً جميلاً.. وبعد أن أفاقت، طلبت مرة أخرى من الممرضة أن تعاود الاتصال بمحمود، وبعد فترة جاءت الممرضة لتقول لها:

- ردت عليَّ واحدة ست في البيت وقالت لي إن مستر محمود بياخد شاور، فقلت لها تبلغه إنه بقى أب لولد جميل.

قالت سوزان بدهشة:

- ست في بيتي!!!

بعد ساعة دخل محمود غرفة سوزان بالمستشفى مهللاً وهو يقول:

- مبروك علينا المولود الجديد يا سوزي.. يا ترى شبهي زي ما كنتِ عايزة؟

ردت سوزان باستياء:

- محمود، مين الست اللي ردت على المرضة لما اتصلت بك في بيتنا؟

- إيه الهبل ده، دي مسز آدمز جارتنا جت عشان تسأل عليكي بعد ما ابنها قال لها إنك سألتي عليها قبل ما تروحي المستشفى.

- تقوم تسيبها وتاخد دش؟

- وإيه المشكلة، مسز آدمز مننا وعلينا، أنا عمري ما اعمل تكليف معاها.

- طب هي ما جتش معاك ليه تبارك لي؟

قال محمود غاضباً:

- هو تحقيق يا سوزان؟! أنا إيه اللي عرفني.. إيه الحكاية.. إنتِ دايما تقلبي كل حاجة نكد.

في هذا الوقت دخل عليهما مستر مايسون مباركاً.. فأسرع محمود ليرحب به قائلاً:

- أهلا مستر مايسون. أنا مش مصدق إنك جيت تبارك لي بنفسك.

قال مايسون بصوته الأجش:

- إزاي يا محمود، ده إنت زي ابني، ألف مبروك على المولود الجديد، مبروك يا سوزان.

ردت سوزان بامتعاض شديد:

- شكراً.

سألهم مايسون بعد فترة وجيزة:

- يا ترى اسم المولود إيه؟

رد محمود بفرحة:

- أحمد.

ثم قال مايسون:

- مش حقعد كتير، أنا عارف أكيد في اللحظة دي تحبوا تقعدوا مع بعض لوحدكم.. أنا حسيبكم دلوقتي، محمود خد مني الشيك ده، هدية لأحمد.

أخذ محمود الشيك ثم قال بعد أن قرأ الرقم المكتوب عليه:

- ده كتير أوي مستر مايسون.

- مش كتير عليك محمود.. إنت عارف أنا بقدرك قد إيه.

تركهما مستر مايسون ثم التفت محمود إلى زوجته قائلاً بسعادة:

- إنتِ عارفة الشيك بكام؟

قالت سوزان بقلق:

- مش مهم الشيك يا محمود، الراجل ده مش مريح، الهدايا اللي بيهديها لنا دون داعي، وقدومه كل شوية في المطعم يتكلم معاك على جنب.. إنت عارف ماكنزي، مش بيشكر فيه خالص وهو فعلاً قلقان علينا منه قوي.

قال محمود بعصبية:

- من امتى ألبرت ماكنزي بيتكلم كويس على حد، مش بقولك إنك عندك قدرة عجيبة على العكننة.

* * *

وبعد عامين من يوم ميلاد أحمد، اضطر محمود للسفر إلى مصر ليقضي فيها أياماً قليلة.

القاهرة، ١٩٨٩

جلس محمود في صالون منزل أبيه كمال أبو العلا، وكانت سعاد أخته تجلس معه بملابس الحداد، دخل عليهما مختار زوجها

ليرحب بمحمود قائلاً:

- أهلاً محمود.. سعاد كلمتني عنك كتير، كان نفسي أشوفك في ظروف أحسن من كده.

قال محمود بابتسامة خفيفة:

- أهلاً يا مختار.

قالت سعاد باستياء شديد:

- تصور يا مختار، محمود جاي أسبوعين عشان يصفي شركات بابي.. وراجع على أمريكا تاني.

ثم نظرت إلى أخيها ودمعة على خدها قائلة:

- ده أنا ياما اتحايلت عليك يا محمود عشان ترجع قبل وفاته، كان نفسه يشوفك قبل ما يموت، كان نفسه ياخدك في حضنه، وإنت ولا هنا.. دلوقتي بس اللي جاي عشان تبيع شركاته وللأجانب!

رد عليها محمود ببرود قائلاً:

- والله يا سعاد أنا جاي أبيع نصيبي وأعتقد ده من حقي.

قالت سعاد بعصبية:

- لأ مش من حقك تهدم حلم أبوك.. مين اداك الحق ده؟!

قال محمود في ضيق:

- مافيش أدامي اختيار تاني.. أنا مش ناوي أرجع مصر نهائي، مافيش أي سبب يخليني احتفظ بالشركات دي.

- إذا كنت قلقان على الإدارة يا محمود وتشغيل العمالة، دي مش مشكلة.. مختار ممكن يديرها لك، ومش حتلاقي أحسن منه يحافظ على حاجتك.

وقف محمود وقال بحدة:

- آه قولوا كده بأه، إنتم داخلين على طمع.

وقفت سعاد قائلة بمزيد من العصبية:

- إنت إيه إلى جرا لك يا واد إنت؟ إزاي تقوللي ولمختار حاجة زي كده؟ كل ده عشان عايزة أحافظ على حلم أبوك اللي شايفاه بيضيع أدامي؟

قال محمود من دون اكتراث:

- أسطوانة الشهامة دي مش عليَّ يا سعاد.

وقف مختار بينهما ثم قال لزوجته بصوت عال ومحتد:

- كفاية بأه يا سعاد.. محمود من حقه يبيع نصيبه.. وكفاية بهدلة لحد كده.

قال محمود وهو يهم بالانصراف:

ليرحب بمحمود قائلاً:

- أهلاً محمود.. سعاد كلمتني عنك كتير، كان نفسي أشوفك في ظروف أحسن من كده.

قال محمود بابتسامة خفيفة:

- أهلاً يا مختار.

قالت سعاد باستياء شديد:

- تصور يا مختار، محمود جاي أسبوعين عشان يصفي شركات بابي.. وراجع على أمريكا تاني.

ثم نظرت إلى أخيها ودمعة على خدها قائلة:

- ده أنا ياما اتحايلت عليك يا محمود عشان ترجع قبل وفاته، كان نفسه يشوفك قبل ما يموت، كان نفسه ياخدك في حضنه، وإنت ولا هنا.. دلوقتي بس اللي جاي عشان تبيع شركاته وللأجانب!

رد عليها محمود ببرود قائلاً:

- والله يا سعاد أنا جاي أبيع نصيبي وأعتقد ده من حقي.

قالت سعاد بعصبية:

- لأ مش من حقك تهدم حلم أبوك.. مين اداك الحق ده؟!

قال محمود في ضيق:

رأسها على المائدة الأمامية وفي يدها كوب من الخمر حتى غالبها النوم، أما ابنها فكان نائماً على الكرسي وابنتها الرضيعة كانت تصرخ في مهدها.. دخل عليها محمود ومعه حقيبة صغيرة، وضع حقيبته على الأرض وأخذ يوقظها قائلاً:

- إيه يا سوزان، مش سامعة صريخ ليلى، دي حتموت نفسها من العياط.

رفعت سوزان رأسها وأخذت ابنتها في حضنها حتى هدأت الرضيعة، ثم قالت سوزان بصوت شبه سكران:

- إنت جيت من سفرك بدري؟! خير! هو إنت اتخانقت مع حبيبة القلب؟

قال محمود في ملل وهو يجلس بجانبها على الشيزلونج:

- كفاية بأه دي ما بقتش عيشة، الغيرة بتاعتك لا تطاق.

قالت سوزان ودمعة تجري على خدها:

- الغريبة اللي يسمعك يفتكر إنك غلبان ومسكين وأنا بافتري عليك.. أنا عرفت إنك كنت معاها في ميامي بيتش.

- يا بنتي ميت مرة أقول لك دي سكرتيرة مايسون وإنتِ عارفة إن بيني وبينه شغل خاص وبخلصه.

قالت سوزان بسخرية:

- شغل مع مايسون اللي عليه مليون علامة استفهام.. تفتكر إني مش عارفة إنك بتاجر لمايسون من الباطن، وبتستخدم مطعمنا إيسترن سِنت واجهة عشان أعمالك الدنيئة معاه؟ وطبعاً مايسون لازم يكافأك، فكل شوية يبعت لك ست شكل على إنها سكرتيرة وبتخلص شغل معاك... وتسافر معاها كام يوم بحجة تخليص الشغل.. وأنا المفروض أسكت وأعمل نفسي هبلة ومش فاهمة.. مش كده؟ مش هي دي الحياة اللي وعدتني بيها يا محمود.

قال محمود بحدة:

- إذا ما كنش عاجبك حاخد هدومي وأغور من وشك، أنا فعلاً كنت سعيد في ميامي، أنا إيه اللي جابني بدري.

وجذب حقيبته وخرج غاضباً من المنزل.. ثم عادت سوزان إلى الخمر حتى تنسى ما تتجرعه من تعاسة وعذاب كل يوم على يد من اختارته زوجاً لها وضحت من أجله بأيام عمرها.

* * *

لم يمر أسبوع إلا ووجد محمود ألبرت ماكنزي في انتظاره، كان جالساً على إحدى موائد القاعة الرئيسية للمطعم، فاتجه إليه محمود بابتسامة مصطنعة وهو يقول:

- نورت المطعم مستر ماكنزي، إنت أكيد جاي عشان سوزان،

بس للأسف ما أفتكرش إنها حتيجي المطعم النهارده.

قال ماكنزي بحدة:

- أنا مش جاي عشان سوزي.. أنا جاي عشان أقابلك.

قال محمود في عجل:

- ثانية واحدة وحكون معاك.

تركه محمود ودخل مسرعاً إلى حجرته الخاصة داخل المطعم ليواري قلقه، وأخذ يسأل نفسه.. ما الذي أتى بألبرت ماكنزي إلى هنا؟ وما الذي جعله يترك كل أعماله ويقطع كل هذه المسافة؟ من المؤكد أن سوزان حدثته عن شيء.. ترى ماذا قالت له سوزان؟ وإلى أي مدى حكت له من أخبار؟ فكر محمود أن يكلم سوزان ليعرف منها ما وراء هذا الرجل، ولكنه تراجع.. فهو الآن وضعه اختلف، أصبح من رجال الأعمال وله صيت ولا ينبغي أن يأبه بما قد يفعله رجل مثل ماكنزي.. أو أن يُشعر سوزان أو أي كائن من كان أنه يخشى أمراً... عاد محمود إلى صالة المطعم الرئيسية وجذب الكرسي المقابل لألبرت ماكنزي بهدوء ثم قال:

- خير مستر ماكنزي؟

اقتضب حاجبا ماكنزي وهو يقول:

- أنا شايف إن المطعم بيكبر والعائد بتاعه بأه مجزي جداً، ده

غير البيزنيس التاني اللي مع مايسون.

قال محمود بحدة:

- إذا كنت بتلمح على السُلفة اللي أخدتها منك، فأنا حردها ولكن في الوقت المناسب.

- والوقت المناسب ده لسة مجاش يا محمود؟

- إن شاء الله قريب.

قال ماكنزي وما زال يحتفظ بهدوئه:

- اسمع يا محمود، أنا لما سلفتك المبلغ ده كان عشان سوزان، وأنا قلتها لك بصراحة من أول يوم.. أنا ماليش فيك أوي.. وإنت وعدتني إنك مش حتجرح سوزان مهما حصل، لكن إذا إنت أخليت بالشرط ده، أنا كمان حطالب بفلوسي كاملة.. ومش حسيبك.. فهمتني؟

نظر إليه محمود بضيق شديد وهو يقول:

- فهمت مستر ماكنزي، فهمت.

الآن أدرك محمود سبب الزيارة.. وهو بطبعه يكره التهديد... هذا الماكنزي المغرور.. لا بُدَّ أن يوضع له حد إذا حاول أن ينفذ تهديده.

* * *

نيويورك، ٢٠٠٣

مرت أعوام وأعوام.. وكانت الصدمات تلاحق سوزان، ولم تجد

ملاذاً في أي شيء حتى الخمر التي أدمنتها، وفي يوم كانت سوزان في بيتها، تنظر إلى صورة لها مع أولادها، وكانت مخمورة وتبكي وهي تقول:

- وحشتوني أوي يا ولادي، فراقكم صعب أوي.

دخل عليها محمود واتجه إليها ثم وضع يده على كتفيها بحنان وهو يقول:

- سوزان الحادثة بقالها سنين، وإنتِ مش قادرة تنسي، هوني على نفسك.

قالت سوزان باكية:

- حتى الخمرة مش بتنسيني.. هو فيه أم تقدر تنسى أولادها يا محمود؟

- أقول لك، اخرجي مع أصحابك.. تعالي المطعم زي زمان... ساعدي نفسك يا سوزان، ما ينفعش كده يا حبيبتي.

عندما شعرت سوزان من زوجها بلطف كانت تفتقده منذ زمن، نظرت إليه في توسل قائلة:

- اقعد معايا يا محمود، النهارده عيد ميلاد أحمد ومش عايزة أقعد لوحدي.

قال لها مبتسماً:

- حاضر يا ستي.

جلس محمود بجانبها ثم وضعت رأسها على كتفيه تبحث عن أمان ضائع.. قال لها محمود وهو يلعب في إحدى خصلات شعرها:

- أنا بفكر ننتقل لبيت جديد أكبر وأجمل عشان كمان يساعدك على النسيان.

قالت سوزان بفرحة:

- أيوه يا حبيبي، اعمل أي حاجة تخليني أنسى إني فقدت أولادي.

- ششش، خلاص كفاية كلام في الموضوع ده.. أنا عايزك تشاوري على أي بيت في المنطقة وتقولي هو ده.

أخذ محمود الريموت كنترول وشغل به التلفاز ثم قام وهو يقول لسوزان:

- حعمل لك كابيتشينو ماحصلش.

وقف محمود في المطبخ الصغير (الكيتشانيت) المطل على غرفة المعيشة وقام بتشغيل الكافي ميكر، ثم سمع المذيعة في التلفاز وهي تقول: تم القبض على ألبرت ماكنزي رجل الأعمال المعروف الليلة في منزله بلوس أنجلوس بتهمة الاتجار بالمخدرات وتعتبر هذه من أهم قضايا القرن الواحد والعشرين.. تفاصيل الخبر بعد قليل.

شعرت سوزان وكأنها قشة في مهب الريح بعد سماع الخبر فصاحت قائلة:

- مش معقول!

قال محمود ببرود وهو يقدم لها فنجان القهوة:

- وانا برده ما كنتش مصدق إن العز اللي هو فيه ده من شركته الكحيانة.

قالت سوزان باكية:

- اسكت يا محمود، ما تقلش كده على ألبرت ماكنزي، ده أشرف راجل شوفته في حياتي.. مش بعيد إنك تكون إنت والشيطان مايسون بتاعك ليكم دخل في المصيبة دي خصوصاً بعد ما رفع عليك القضية عشان يسترد فلوسه وكان قرب يكسبها.

قال محمود وهو في قمة الغضب:

- إنتِ أكيد اتجننتي.. أنا غلطان إني بحاول أخرجك من اللي إنتِ فيه، نسيت إنك ست نكدية ومؤرفة.

تركها محمود وهي تبكي بحرقة وخرج غاضباً من المنزل، أما سوزان فأحست بأنها وحيدة في دنيا الذئاب.. لقد قام محمود بالتخلص من آخر صمام أمان لها.. وبدأت تحدثها نفسها.. يا إلهي كل يوم أقضيه مع هذا الرجل أكتشف إنه أسوأ من ذي قبل، إلى متى وإلى

أين تقودني حياتي معه.. فحبي له أصبح نوعاً من العبودية حتماً سيجرني إلى هلاك محتوم.

* * *

نيويورك ١٤ يوليو ٢٠١٠

مرت الأعوام متلاحقة متعاقبة حتى عام ٢٠١٠، وكانت العلاقة بين سوزان ومحمود في تدهور مستمر، وفي ليلة كان محمود يجلس في سراياه الفخمة، وكانت زوجته كعادتها على البار تحتسي الخمر، وكانت تغني بصوت مخمور عالي مما أزعج زوجها، فصاح في وجهها قائلاً بعد أن فاض به الكيل:

- كفاية شرب بأه حرام عليكي.. إنتِ ما تنفعيش تكوني زوجة ولا ست حتى.. ما تفوقي شوية اعملي معروف.

قالت سوزان بصوت شبه سكران:

- أفوق؟ أفوق ليه؟ عشان أشوف جوزي كل يوم مع عشيقة شكل، وكمان تاجر مخدرات أد الدنيا.

صرخ محمود قائلاً وهو يضع يده على فمها ليوقفها عن الحديث:

- ميت مرة أقول لك ما تتكلميش في الموضوع ده... إنتِ غبية ومش فاهمة حاجة.

أزاحت سوزان يده عنها ثم صرخت قائلة:

– إنت فاكر إنك بس اللي ذكي، كل خططك مكشوفة يا حضرة العبقري.. أنا عرفت إنك إنت اللي حرمتني من أولادي.

قال محمود بحدة:

– إنتِ أكيد سكرتي على الآخر.. إنتِ نسيتي عملتك السودا؟ نسيتي لما الجيران بلغوا عنك ساعة الحريق وإنتِ كنتي كالعادة سكرانة وأولادك كانوا محبوسين وكانوا حيتحرقوا لولا مستر ومسز آدمز، وكنتِ السبب في إننا اتحرمنا منهم طول العمر بعد ما حكمت المحكمة إننا ما نصلحش أولياء أمور وسلمتهم لعيلة تانية.. ولولا تعرضك ليهم وتصميمك لعدم تنفيذ حكم المحكمة، كنا على الأقل قدرنا نشوفهم ما بين كل حين وآخر.. لكن إنتِ إنسانة غبية.

قالت سوزان وهي ترتجف:

– مسز آدمز كانت عندي النهارده.

قال محمود باستياء:

– إيه اللي فكرها بينا؟ مش كنا سيبنا لهم المكان من سنين؟

– مش مهم إيه اللي فكرها بينا.. المهم اللي قالته لي.

قال محمود وهو يحاول أن يظهر بأنه غير مكترث:

– يعني حتكون قالت إيه يعني؟

أين تقودني حياتي معه.. فحبي له أصبح نوعاً من العبودية حتماً سيجرني إلى هلاك مختوم.

* * *

نيويورك ١٤ يوليو ٢٠١٠

مرت الأعوام متلاحقة متعاقبة حتى عام ٢٠١٠، وكانت العلاقة بين سوزان ومحمود في تدهور مستمر، وفي ليلة كان محمود يجلس في سراياه الفخمة، وكانت زوجته كعادتها على البار تحتسي الخمر، وكانت تغني بصوت مخمور عالي مما أزعج زوجها، فصاح في وجهها قائلاً بعد أن فاض به الكيل:

- كفاية شرب بأه حرام عليكي.. إنتِ ما تنفعيش تكوني زوجة ولا ست حتى.. ما تفوقي شوية اعملي معروف.

قالت سوزان بصوت شبه سكران:

- أفوق؟ أفوق ليه؟ عشان أشوف جوزي كل يوم مع عشيقة شكل، وكمان تاجر مخدرات أد الدنيا.

صرخ محمود قائلاً وهو يضع يده على فمها ليوقفها عن الحديث:

- ميت مرة أقول لك ما تتكلميش في الموضوع ده... إنتِ غبية ومش فاهمة حاجة.

أزاحت سوزان يده عنها ثم صرخت قائلة:

- إنت فاكر إنك بس اللي ذكي، كل خططك مكشوفة يا حضرة العبقري.. أنا عرفت إنك إنت اللي حرمتني من أولادي.

قال محمود بحدة:

- إنتِ أكيد سكرتي على الآخر.. إنتِ نسيتي عملتك السودا؟ نسيتي لما الجيران بلغوا عنك ساعة الحريق وإنتِ كنتي كالعادة سكرانة وأولادك كانوا محبوسين وكانوا حيتحرقوا لولا مستر ومسز آدمز، وكنتِ السبب في إننا اتحرمنا منهم طول العمر بعد ما حكمت المحكمة إننا ما نصلحش أولياء أمور وسلمتهم لعيلة تانية.. ولولا تعرضكِ ليهم وتصميمك لعدم تنفيذ حكم المحكمة، كنا على الأقل قدرنا نشوفهم ما بين كل حين وآخر.. لكن إنتِ إنسانة غبية.

قالت سوزان وهي ترتجف:

- مسز آدمز كانت عندي النهارده.

قال محمود باستياء:

- إيه اللي فكرها بينا؟ مش كنا سيبنا لهم المكان من سنين؟

- مش مهم إيه اللي فكرها بينا.. المهم اللي قالته لي.

قال محمود وهو يحاول أن يظهر بأنه غير مكترث:

- يعني حتكون قالت إيه يعني؟

قالت سوزان وهي تبكي:

- أكدت لي إنها شافتك وإنت بترمي كبريت مولع على الزيت ورا في الجراج يوم الحادثة.. وإنها لا هي ولا جوزها بلغوا الشرطة.. وحكيت لي كمان إزاي إنت قدرت تضغط عليهم وتشتري سكوتهم.

قال محمود في غل شديد:

- كان لازم أعمل كده عشان مايتربوش على إيد أم ساقطة زيك.

- أبداً ده كدب.. إنت كنت عايز تهرب من مسئوليتهم.. إنت اتجوزتني وإنت عارف عني كل حاجة.. أنا كنت صادقة معاك، وإنت عارف إن محدش لمسني بعد ما عرفتك.. إنت بأه قوللي إنت اتجوزتني ليه يا محمود... عارف ليه؟ لإنك مصلحنجي قذر.

صفعها محمود بحدة قائلاً:

- اخرسي.

فبصقت على وجهه، فجذبها من شعرها ولم ينقذها منه سوى رنين جرس هاتف محموله، فرد قائلاً:

- أهلا مستر مايسون.

قال مايسون بصيغة أمر:

- محمود تعالَ أنا عايزك.

- دلوقتي مستر مايسون؟

- حالاً.

نظر محمود إلى زوجته غاضباً وهو يقول:

- حسابك معايا لما ارجع.

تمتمت سوزان بصوت يكاد يكون مسموعاً:

- مش حترجع يا محمود.. صدقني.

ذهب محمود إلى سرايا مستر مايسون على عجل، ودخل عليه البهو الرئيسي فوجده جالساً وسط رجاله وفي عينيه نظرة يعرفها جيداً، فقال بخوف شديد:

- مستر مايسون.. فيه حاجة؟

نظر مايسون نظرة ثاقبة إلى محمود ثم قال بتأثر:

- اسمع محمود، أنا بزعل أوي لما أفقد صديق عزيز وإنت عارف أد إيه أنا حبيتك، حقيقي فراقك عليَّ حيكون صعب.

خطا محمود خطوات قليلة إلى الخلف وهو يقول بتوسل وذعر:

- ليه كده مستر مايسون؟ أنا طول عمري بشتغل معاك بمنتهى الإخلاص.. أنا غلطت في إيه؟

أخرج مايسون سلاحه وقال له في هدوء:

- مش لازم تعرف إنت غلطت في إيه، ماعنديش وقت أحكي

معاك، آسف... دورك معانا انتهى لحد كده.

وأطلق مايسون عليه رصاصاً في كل مكان في جسده ليسقط قتيلاً... وبعدها فتح محمود عينيه ليجد الملاك أمامه، فقال له محمود:

- أنا شفتك قبل كده.

قال له الملاك واجماً:

- أكيد.

التفت محمود وراءه ليجد جسده مستلقياً على الأرض وهو غارق في دمائه، فتذكر كل شيء.. ثم قال للملاك:

- أنا بريء يا سيد ملاك.

قال له الملاك مستنكرًا:

- بريء!! طيب يلا يا خويا.

قال له محمود:

- إنت مش واخد بالك ولا إيه؟ أنا القتيل مش القاتل.

قال الملاك وهو يجذبه أمامه بلطف:

- إنت لو اتقتلت ألف مرة مش كفاية عليك.

أخذه الملاك مرة أخرى إلى الكوبري الخشبي فوق السحاب.. وكان يحمل صحيفة جديدة باسم محمود أبو العلا يبدو إنها أكثر سمكاً من ذي قبل، فقال له محمود متوسلاً:

- صدقني أنا مظلوم وضحية.

قال له الملاك بدهشة:

- يخرب بيتك، إنت خلتني أشتمك وأنا ملاك.. ضحية إيه تاني؟! إنت صحيفتك المرة دي أسوأ من المرة اللي فاتت بكتير.

- أنا ضحية ظروفي.. ابن مدلل لأب غني.. حياة مرفهة خلتني ما حسش بمعنى المسئولية.

- إنت لسة بتقول ظروف؟ ما إحنا غيرنا ظروفك كلها، وبرده عملت نفس الأخطاء بس بطريقة أبشع.

- شُفت بأه يا أستاذ ملاك! أديك قلتها... الظاهر مكتوب عليَّ أكون إنسان شرير، بدليل إني كل ما أنزل الدنيا بعمل نفس الأخطاء! أعمل إيه غصب عني.. على فكرة ده كده بأه يبقى قمة الظلم.

قال له الملاك باستياء:

- بص بأه حجة البليد مسح التختة... إنت كنت حر تماماً في كل حركة وفي كل كلمة وفي كل خطوة.. هل جربت في أي مرحلة تعمل خير ولقيت حد منعك؟

قال محمود بقلق:

- طب تفسر بإيه إني بكرر أخطائي؟

- عشان ده اللي إنت عايزه يا محمود... على الرغم من إن طريق

الخير وطريق الشر مفتوحين أدامك على حد سواء، لكن إنت للأسف بتميل لاختيار طريق الشر في التعامل مع مجريات الحياة، إنت يا محمود في حياتك التانية أصبحت من عائلة غنية ولها نفوذ، ومع ذلك حسيت بعقدة نقص برده... لكن مع الأمريكان، وقدر واحد تافه زي جون يستفزك ويدفعك إنك تحيد عن طريق الصواب... زي ما في حياتك الأولى دفعك إحساسك بعقدة النقص بسبب فقرك لارتكاب أخطاء كتيرة ونسيت في كلتا الحياتين إن الإنسان مش بفلوسه ولا بجنسيته ولكن بمبادؤه وضميره.

لم يستطع محمود أن ينطق بكلمة، فأغمض عينيه متأثرًا.. وجرت دمعة ندم على خديه، أما الملاك فأكمل قائلاً:

- إنت في حياتك التانية اخترت إنك تحرم أبوك من إنه يشوفك رغم إنك كنت عارف إنها كانت الأمنية الوحيدة له قبل ما يموت، مجرد عشان خفت تواجهه وإنت فاشل.. قبل كده عملت نفس المعصية عشان خفت تواجه عيلة مراتك بأصلك الفقير.. الخوف من المواجهة في كلتا الحالتين خلاك تختار تبقى جاحد على والدك... ودي عند ربنا كبيرة أوي.

شعر محمود بالخوف... وارتعد قلبه، وعلى الرغم من أن الملاك علم بما يشعر به محمود من رعب.. فإنه أكمل حديثه قائلاً:

- إنت اخترت تدوس على كل المثل وتتجوز جواز مصلحة، واستغليت البنت المسكينة اللي ما شفتش حقيقتك لإن حبها لك عماها.. نفس جواز المصلحة اللي عملته قبل كده، وخنتها مع ستات كتير زي ما عملت معاها قبل كده برده في حياتك الأولى، زمان في حياتك الأولى حرمتها من ابنها باستفزازك له لحد ما دفعته إنه يسيب البيت.. بس المرة دي كنت أقسى عليها.. حرمتها من أولادها الاتنين بخدعة قذرة، وبعدين عضيت الإيد اللي اتمدت لك، بس بدل ما تغدر بدكتور صالح بهجت اللي أفضاله عليك كتير وشغلك عنده في المستشفى في مركز إداري كبير، المرة دي غدرت بمستر ألبرت ماكنزي اللي برده كانت أفضاله عليك كتير وساعدك في مشروع المطعم.. استغليت ضعف الناس وجهلهم.. خيبت الشباب بالإدمان وتاجرت في الحشيش والهيروين زي ما قبل كده استغليت المرضى وتاجرت بالدم الفاسد وتجارة الأعضاء وكان علاج الناس عندك كله تجارة... يعني من الآخر، الظروف اتغيرت بس إنت ما اتغيرتش.

قال محمود يستعطفه:

- طب ممكن تديني فرصة تالتة.. صدقني أكيد المرة دي حبقى كويس أوي.. بس خلي أبويا يكون واحد من الطبقة المتوسطة.

قال الملاك ساخراً:

– مش عايز أبوك بالمرة يكون شعره ناعم وعينيه خضر.. إنت يا بني بتستهبل؟ التجربة أثبتت لك إنك تحت أي ظروف أخطاءك ما بتتغيرش..لإنك نفس الإنسان.. يلا بأه.

أمسك الملاك محمود من ذراعه ومشى به إلى الأمام وأخذ محمود يبكي ويقول:

- أنا ضحية الظروف.. أنا أصلاً إنسان خيِّر، صدقني.

قال الملاك وقد فاض به الكيل:

- اسمع بأه.. لو كان فعلاً فيك أي خير ما كنتش تموت على معصية.. وكنت راجعت نفسك في أي مرحلة من حياتك. لكن ده إنت يا راجل لغاية اللحظة دي بتبرر أخطاءك!!

- إديني فرصة أخيرة.

– إنت من سيئ لأسوأ يا دكتور، مش بعيد لو نزلت الدنيا تاني حتدعو هبل.. يلا يا عمي ما عنديش وقت، في ناس كتير غيرك.

صرخ محمود قائلاً:

– أنا مظلوم.. حرام.

اختفى محمود والملاك في الضباب وصوت محمود يرن... أنا مظلوم، أنا غلبان.

الفصل الثامن
وقت إضافي

- أنا مظلوم... أنا غلبان.

كان الدكتور محمود يردد هذه الكلمات وهو في غرفة الإفاقة، وكان بجانبه د. يسري طبيب التخدير ومن الناحية اليمنى الدكتور رشوان صديقه ومساعده في إدارة المستشفى.

أخذ صياحه يعلو حتى فتح عينيه، وعندما وجد دكتور رشوان بجانبه، اندهش.. إذ علم أنه ليس كما كان يظن... إنه لم ينتقل بعد إلى العالم الآخر.. فهو يعلم أن الدكتور رشوان لا يزال من أهل هذه الدار الزائلة الزائفة... الدار الدنيا، بل من أهل حياته الأولي التي كان يحياها وهو طبيب.. أما دكتور رشوان فقال له بفرحة:

- ألف حمد لله على السلامة يا دكتور محمود.

قال محمود بصوت خافت:

- أنا فين؟

قال دكتور يسري:

- إنت في الإفاقة.. والحمد لله العملية مشيت زي الفل.

قال محمود بدهشة وبصوت هزيل:

- أنا لسة عايش.. معقول!

قال دكتور رشوان وهو يضحك:

- ده إنت غلبتنا لغاية ما فُقت.. إيه يا راجل الهلوسة اللي كنت بتهلوسها دي.. ده إنت يا دكتور رحت لغاية تمثال الحرية.

قال دكتور يسري مفسراً:

- مع بعض الناس نوع البنج ده بيعمل كده.. ده في مرة مريض شاف نفسه طلع المريخ.

ضحك الجميع.. أما محمود، فشعر بامتنان وأراد أن يشكر الله ألف مرة على هذه المنحة.. لقد أراد الله أن يعطي له فرصة أخيرة، بعد أن لقنه درساً لن ينساه.. فقد أدرك الآن أن الموت أقرب له من الحياة... وأن كل ما يتبقى من الإنسان... وكل ما يورثه من حطام هذه الدنيا هو ما يكمن في قلبه وما تقترفه يداه.

قام دكتور رشوان وكلم جناح ٥٢٣ وهو يقول:

- مدام سوزان، حمد الله على سلامة دكتور محمود.. حيكلمك من الإفاقة.

وضع دكتور رشوان السماعة على أُذن دكتور محمود ثم قال محمود بصوت هزيل:

- ألو... أيوه يا سوزان، الحمد لله أنا كويس أوي.

تلقت سوزان غالب خبر سلامة زوجها بفتور شديد.. وسألت نفسها.. إلى هذا الحد تجمد قلبها؟ ثم تراجعت قائلة.. إنه لم يتجمد بل احترق من النار التي ألقيت فيها منذ أن وطئت قدماها منزل الزوجية، فأصبحت الآن زوجة بلا قلب.. لا يعنيها موت زوجها من حياته!

* * *

وبعد أيام قضاها محمود في المستشفى استرد فيها بعض عافيته، عاد مع زوجته وابنته إلى منزله.

دخل دكتور محمود غرفة نومه؛ حيث خلعت سوزان من عليه الجاكيت وعلقته، ثم جلس محمود على الشيزلونج المقابل للفراش حيث التفتت إليه زوجته وقالت ودمعة تسقط من عينيها:

– أحمد اتكلم النهارده من عند صاحبه وسأل عليك.

ثم جلست سوزان على طرف الفراش وقالت لزوجها في توسل:

– محمود ممكن أطلب منك إنك تحاول تصلح بينك وبين أحمد؟ أنا ابني وحشني أوي ومش طايقة بعاده أكتر من كده.

ابتسم محمود ابتسامة هادئة وقال:

– أوعدك إن كله حيتصلح.

اندهشت سوزان من هذه النبرة الجديدة، ثم نظرت في ساعتها

وقفزت قائلة:

- معاد الدوا.. ثانية واحدة.

أمسك محمود يد زوجته وهي تعطي له الدواء قائلاً:

- أصيلة يا سوزان.

ردت ببرود وهي تسحب يدها:

- أشكرك.

همت سوزان بالخروج من الغرفة فقال لها محمود:

- سوزان، ممكن تقعدي معايا شوية؟ أنا محتاج أتكلم معاكي.

قالت سوزان وهي عند الباب:

- خير.

- أنا آسف.

قالت سوزان بدهشة بالغة:

- آسف!! على إيه؟

قال محمود بعين دامعة:

- على كل حاجة.. على كل جرح جرحتهولك.. على كل دمعة نزلت من عينيكي بسببي.. على كل ليلة جفاكي فيها النوم من عمايلي.. على..

قاطعته سوزان متعجبة وهي تقول:

– بالبساطة دي؟ واشمعنا بتتأسف النهارده.. إيه اللي جد يعني؟

قال لها محمود باهتمام:

– أنا كنت حموت.. لكن ربنا برحمته وعظمته كتب لي أعيش، حاسس زي ما يكون حياتي بعد العملية زي الوقت الإضافي اللي بيدوه للعيبة في ماتش الكورة... عشان يبقى عندهم فرصة أخيرة لتحقيق الأهداف والفوز على الرغم من انتهاء الوقت الأصلي.

قالت سوزان متعجبة:

- ماتش إيه يا محمود اللي بتتكلم عليه؟ أنا مش فاهمة حاجة من كلامك النهارده خالص.

– ماتش الحياة يا سوزان.. الحمد لله إنه اتكتب لي عمر جديد عشان أعيد حساباتي وأصحح أخطائي قبل فوات الأوان.

– وإنت كنت لازم تواجه الموت عشان تعيد حساباتك يا محمود؟

قال محمود بابتسامة حانية:

– مش كل الناس ضمايرهم حية زيك يا سوزان، في ناس زي حالاتي كده، محتاجين صدمة قوية في حياتهم عشان يفوقوا.

صمت برهة ثم أكمل:

- تعرفي، وقت العملية كنت بهلوس من البنج أو بحلم مش عارف.. حلمت إني مت وربنا إداني فرصة تانية ورجّعني الدنيا تاني عشان أصلح من نفسي بعد ما غير ظروفي كلها وخلاني أنسى حياتي القديمة تماماً.. لكني برده فشلت وكررت نفس أخطائي وكنت شخصية أشر وأفظع.

ردت الزوجة في تعجب:

- هلوسة غريبة فعلاً.

- لكن لما فُقت لقيت إن في الحقيقة رحمة ربنا أوسع من كده بكتير، مد لي في عمري وأنا فاكر كل أفعالي وأخطائي، عشان اقدر أتعلم منها وأصلحها بقدر الإمكان.

قالت سوزان:

- بحاول أفهمك.

- مش لازم تفهميني، لكن لازم تعرفي إني فعلاً ندمان.. أنا عارف قلبك كبير وحيسامح ويغفر، مش كده يا سوزان؟ قوليها لي.

لم تشعر سوزان إلا وقلبها ينتفض.. ذلك القلب الذي ظنت أنه احترق وأصبح رماداً متناثراً.. وشعرت بدموعها تنهمر بغزارة من عينيها.. تلك العيون التي ظنت يوماً أنها قد جفت تماماً من الدموع، ثم

قالت بصوت باكٍ:

- أسامحك! ! أسامحك على حياتي اللي ضاعت.. ولا حلم العمر اللي اتقلب لكابوس.. أسامحك على إيه ولا إيه يا دكتور محمود.

قال محمود بتوسل:

- إنتِ عمرك ما كنتِ قاسية يا سوزان.

قالت سوزان معاتبة وهي تمسح دموعها:

- قاسية! ! الله يسامحك.

قال محمود وهو لا يزال يستعطفها:

- ارحمي ضعفي يا سوزان، أنا بترجاكي.. أنا بشر وعارف إني غلطت كتير، وكل أملي إنك تسامحيني.

قالت سوزان بحدة:

- أديك قولتها.. إحنا بشر وضعفاء، لنا طاقة محدودة.. أنا آسفة يا محمود، أنا ما قدرش أنسى أو أسامح، دي حاجة فوق طاقتي.. اطلبها من ربك، هو اللي بيغفر الذنوب كلها.. لكن أنا سيبني في حالي، أنا زي ما قلت لك مرة زمان، أنا مستنية ليلى تتجوز وأحمد يقف على رجله وبعدين كل واحد فينا يروح لحاله.

قال محمود بأسى:

- إذا كانت دي رغبتك.. يبقى ده أكبر عقاب ليَّ، لأن فراقك حيكون أصعب حاجة عليَّ، أنا فعلاً بحبك.

وضعت يدها تلقائيّاً على فمه ثم قالت:

- سيب الحب في حاله يا محمود.

لم تتحمل سوزان أن تسمع ممن اغتال كل الحب كلاماً عن الحب، أما هو فأمسك يدها وقَبَّلها ودمعته تذرف عليها، ارتعشت يدها بين فمه ودموعه... فسحبتها على الفور، ثم اتجهت ناحية الباب لتتركه وكأنها تهرب من شيء ما، لم تكن تدركه... فقال لها قبل خروجها:

- أنا قررت أروح النيابة وحعترف بكل حاجة عملتها.. أنا حبرأ د. صالح بهجت.

تنهد ثم أكمل:

- عايز أنضف.

قاطعته زوجته قائلة:

- دي كدبة جديدة دي يا محمود؟ يا ترى مخبي وراها إيه؟

تركته زوجته وحيداً، أغمض محمود عينيه ثم تذكر حجم معاناة سوزان معه.. تألم كثيراً عندما تذكر كيف خذل تلك الفتاة الصغيرة الرقيقة التي تحدت العالم أجمع لإيمانها به.. إنها سوزان

زوجته التي أحب عليها نفسه.. أحب عليها سطوته ونفوذه.. والآن يشعر بأن أموال الدنيا كلها وبريقها لا تساوي كلمة غفران من هذه الزوجة النبيلة. يا ليتها تصفح.. ولكن هل يستطيع القتيل أن يسامح من قتله بدم بارد؟

الغفران.. كلمة من أحرف قليلة، ولكن من المحال تحقيقها، ليس لقسوة سوزان، ولكن لقسوة ما وقع بها.. أخذ يردد في نفسه.. أجل، سوزان محقة في كل ما تشعر به، ثم قال بصوت هزيل ويائس وكأنه يكلم نفسه:

- لكِ حق تظني فيَّ أكتر من كده.

وفي اليوم التالي، استيقظ محمود باكراً، فلم يجد سوزان بجانبه، حاول النهوض من الفراش، ولكن حالَ جرحه بينه وبين حركته.. فلبث في فراشه بعض الوقت حتى دخلت عليه زوجته، وعندما همت في إعطائه الدواء، قال لها:

- صباح الخير يا سوسو.

قالت سوزان ببرود:

- صباح الخير.

- صاحية بدري ليه النهارده؟

- أنا ماجليش نوم طول الليل امبارح.

قال محمود بحنان:

- عارف إن كلامي لك امبارح هو السبب.. أنا آسف.

قاطعته زوجته قائلة بحدة بعد أن أعطت له الدواء:

- بلاش دور الملاك ده لحسن مش لايق عليك.

همت سوزان بالخروج من الحجرة فناداها محمود قائلاً:

- سوزان، ممكن تساعديني أروح للحمام.. مش قادر أقوم لوحدي، الجرح بيبقى شادد عليّ أوي الصبح.

سندت سوزان زوجها إلى دورة المياه، وانتظرته، فقد منعها نبل أخلاقها من مغادرة الغرفة حتى تطمئن عليه... وبعد أن خرج محمود من دورة المياه قال:

- ممكن تكلمي لي أحمد، نفسي أسمع صوته.

تعجبت سوزان للحظات من طلب زوجها ، فمنذ أن ترك أحمد المنزل، لم يحاول محمود قط أن يتصل بابنه أو حتى يسأل عنه.. فكلما حاولت سوزان أن تقيم جسر المودة بينه وبين ابنهما عدَّد لها محمود أخطاء ابنهما بألفاظ جارحة وبذيئة، وأسهب في وصف فشله وصدمته فيه، ثم كان ينهي حديثه عنه بأنه لا يستحق أبوته.

أخذت سوزان محمولها واتصلت بابنها كما طلب منها زوجها، ثم أعطت المحمول لمحمود.

قال محمود لابنه بعد أن سقطت دمعة من عينيه:

- أيوه يا بني، واحشني أوي.

راقبت سوزان زوجها بدهشة، وازدادت دهشتها حينما قال لابنه:

- عايزك تيجي تاخدني بكرة قرية أبو المطامير... ممكن يا أحمد؟

* * *

وفي اليوم التالي، مر أحمد على أبيه كما طلب منه، كان لقاءً جافاً، خالياً من أي مشاعر البنوة.. إذ لم يستطع محمود أن يجذب ابنه بين أحضانه، لامتناع الابن الذي اكتفى بسلام اليد.. كل كلمات المودة التي نطق بها محمود لم تستطع إزالة ذلك الجدار الجليدي العازل الذي حال بينه وبين ابنه... وفي النهاية استسلم محمود للأمر.. ربما لأنه كان يشعر أنه يستحق هذه المعاملة عن جدارة... واكتفى في النهاية بالابتسامة، ثم قاد أحمد سيارة أبيه الفاخرة وهو في صحبته متجهاً إلى قرية أبو المطامير.

وفي طريقهما قال محمود لابنه:

- إحنا رايحين النهارده نزور عمتك سعاد، يا رب نقدر نعتر عليها.

لم يعلق ابنه وآثر الصمت حتى وصلا إلى القرية، ثم اتجه محمود وابنه إلى منزل العائلة القديم، فوجداه أنقاضاً، ظل محمود يسأل عن أخته في ظل فضول كبير من كل أبناء قريته حتى عثر على عنوانها الجديد.

وعندما وصل محمود وابنه إلى منزل سعاد قابلهما زوج سعاد بترحاب شديد وأدخلهما صالة معيشته المتواضعة، وتعرف محمود ولأول مرة على أولاد وبنات أخته... أما أحمد فشعر وكأنه يشاهد فيلماً ليس له فيه أي دور... وبعد مرور بعض الوقت ظهرت سعاد وقد كسا الزمان وجهها بآثاره اللاهثة العابسة، وبدا من نظراتها الدهشة ممزوجة بالجفاء والكراهية... قالت سعاد لزوجها وهي تنهره:

- أنا مش قلت لك يا مختار إن أخويا مات... أنا ماليش إخوات.. قول لضيفك إنه مش مرحب بيه هنا.

قال مختار معاتباً:

- عيب يا بت ده أخوكي... الضفر ما بيطلعش من اللحم.

قال محمود وهو يترجى أخته:

- سعاد أنا عَذرك، ومش حقول لك تنسي اللي فات.. لكن حطلب منك إنك لو احتاجتي مني أي حاجة، إنتِ أو الأولاد.. فأنا موجود وأتمنى أعوضك عن..

قاطعته سعاد قائلة ودموعها متحجرة في مقلتيها:

- دايماً بدعي إن ربنا ما يحوجني ليك أبداً.. اخرج برة.

ثم اتجهت إلى أحمد قائلة:

- أنا آسفة يا ابني، إنت مالكش ذنب في اللي بيحصل.

وضع أحمد يده على كتف عمته قائلاً:

- أنا صحيح مش عارف إيه اللي بينك وبين الدكتور محمود أبو العلا.. لكن أنا متأكد إن ليكي مبرراتك.

ابتسمت سعاد ابتسامة المنتصر وهي تقول:

- ده عدل ربنا يا محمود... ابنك حتى مش قادر ينطق كلمة (أبويا).

لم يتحمل محمود طعنات أخته بكلماتها الحادة أكثر من ذلك، فخرج وتبعه ابنه حتى وصلا إلى السيارة، وفي طريق العودة، قال محمود لابنه:

- أنا عايز أوصيك يا أحمد على عمتك... لو جرى لي أي حاجة، أديك عرفت سكتها، وتبقى تسأل عليها وعلى أولادها.. تقف جنبها وتساعدها، هي مش حترفض لو المساعدة جت منك إنت.

قاطعه أحمد والدموع في عينيه:

- إنت ليه بتعمل كل ده دلوقتي؟ مش قادر تفهم ليه إنه its too late، خلاص فات الميعاد، وما فيش قوة في الدنيا حترجع اللي راح يا دكتور محمود.

كلمات صادمة خرجت كالرصاص من الابن وصوبت في قلب أبيه... مما دفع محمود أن يسأل نفسه: هل فعلاً فات الميعاد؟ ولكن كيف وقد أراد الله ألا يفوت، فقد أمدَّ الله في عمره حتى يصلح ما أفسده... ولكن هل يمكن أن يصلح في أيام معدودات ما هدمه في سنوات طوال؟ بل في عمره كله؟!

* * *

بعد أيام تحسنت حالة محمود الصحية ثم عاد إلى عمله من جديد، التف الجميع من أطباء وممرضين حوله ليهنئوه على عودته بالسلامة، وعندما دخل دكتور محمود مكتبه، دخل وراءه دكتور رشوان وهو يقول:

– نورت مكتبك يا محمود.. أنا بس متضايق إن أول يوم تيجي فيه الشغل أدخل عليك بمشكلة زي دي.

– أجِّل أي مشكلة للاجتماع، أنا عايز أعمل اجتماع مستعجل مع مجلس الإدارة.. عشان حاجات كتير لازم تتغير.

قال دكتور رشوان بجدية:

- دي ما تتأجلش.. لأن زمان رجال المباحث جايين.

قال محمود في دهشة:

- مباحث!! خير؟

- تصور اكتشفنا إن الدكتور يسري سرق أدوية من صيدلية المستشفى.

قال محمود في تعجب:

- مش معقول.. دكتور يسري.. دكتور التخدير!! ده من أكفأ الأطباء وأقدمهم وطول عمره شريف.

- طبعاً كان لازم أبلغ يا محمود. ما قدرش أسكت على حاجة زي دي.

اندهش محمود من صديقه، فهو على الرغم من اقترافه انتهاكات لا تعد ولا تحصى، جاء اليوم برداء النبل والطهارة إلى درجة ادعائه أنه لا يستطيع أن يصبر على دكتور يسري ويريد أن يقتص منه نصرة للنزاهة والحق... فرد عليه محمود بشيء من التهكم:

- أكتر حاجة أحبها فيك نزاهتك يا رشوان.

قال دكتور رشوان بتوجس:

- محمود أنا مزعلك في حاجة؟

- لا يا راجل، ده إنت صاحبي وكمان دراعي اليمين.. بس مش أفضل نحل الموضوع ده ودّي بما إنها أول سابقة ليسري عشان مانضيعش مستقبله... خلي التحقيق جوه المستشفى وفي أضيق الحدود.

قال دكتور رشوان وهو غير مقتنع:

- حاضر يا دكتور محمود، إذا كانت دي رغبتك.

خرج دكتور رشوان من غرفة مكتب محمود، ثم رفع محمود سماعة الهاتف وطلب من سكرتيرته أن ترسل إليه دكتور يسري، وبعد فترة وجيزة، طرق دكتور يسري الباب طرقاً خفيفاً ثم دخل بعد أن سمح له محمود بالدخول وقال له:

- اتفضل اقعد.

جلس دكتور يسري ولم يستطع أن يضع عينيه في عين محمود، فنظر نظرة شاردة بعيداً عنه، فقال له محمود:

- أنا مش قادر أصدق وداني، إنت يا يسري اللي كلنا بنضرب بيك المثل في النزاهة والشرف؟

بكى دكتور يسري وهو يقول:

- غصب عني يا دكتور محمود.. ابني الصغير طلع عنده نفس المرض اللي كان عند المرحومة أخته، ومش عايز أتفرج عليه وهو بيضيع مني.. أنا آسف بس الظروف أقوى مني.

شعر محمود بالشفقة عليه.. فوضع يده على كتفه وقال:

- قوم ونشف دموعك.. أنا حساعدك بس بشرط.

قال يسري بتوسل وهو يمسح دموعه:

- أنا مستعد أعمل كل اللي تطلبه مني.. أنا مستعد أمضي على شيكات على بياض.. أنا من إيدك دي لإيدك دي.

قال محمود بدهشة:

- شيكات على بياض!! مش ده اللي عايزه منك يا يسري.

شعر دكتور يسري بالتوجس والريبة.. فهو يعلم جيداً دكتور محمود أبو العلا.. ويعلم أنه لا يمكن أن يقدم أي معونة إلا في مقابل تضحيات جسام... يا ترى ماذا يريد.. قال دكتور يسري بصوت خافت:

- خير يا بيه طلباتك أوامر.

قال محمود بابتسامة:

- مجرد تقول الحقيقة في تحقيقات المستشفى وأنا حشهد في صفك وحساعدك في تكاليف علاج ابنك.

قال يسري بدهشة ممزوجة بالفرح:

- هو حيبقى التحقيق في المستشفى!! كنت فاكر إن دكتور

رشوان بلغ المباحث.

قال محمود:

- أنا حلفي البلاغ ده... لأنها أول سابقة... وآخر سابقة لـك إن شاء الله.

وقف يسري وقال بفرحة شديدة:

- معقول! مش قادر أصدق، ده كتير أوي يا دكتور.

لم يستطع يسري أن يفسر لغز تحول دكتور محمود.. ولكن ليس من الضروري أن يفهم كيف تحول، فيكفيه أن يعرف أنه أصبح إنساناً.

همَّ يسري بالانصراف فقال له محمود:

- فيه حاجة تانية.

- خير يا دكتور؟

- عمرك ما تعلق أخطاءك على شماعة الظروف... توعدني؟

ابتسم يسري قائلاً:

- أوعدك.

وضع محمود يده على كتف يسري وهو يقول:

- أنا عايزك تفتكر الوعد ده دايماً يا يسري.. دي آخر حاجة

حطلبها منك.

قال يسري في قلق:

- مش عارف ليه حاسس من نبرة كلام حضرتك إنك مسافر.. أو مهاجر.

قال له محمود بهدوء:

- حاجة زي كده.

* * *

وبعد أيام وَفَّى محمود بوعده لسوزان، إذ قدم بلاغاً للمباحث برأ فيه الدكتور صالح بهجت، واعترف بكل جرائمه التي ارتكبها هو ومساعده وذراعه اليمنى دكتور رشوان، مما أدى إلى انتهاء الحال به في قاعة المحكمة حيث كان في انتظار النطق بالحكم في قضيته.

وقف كل من دكتور محمود ودكتور رشوان ومعهما خمسة أطباء آخرون من المتورطين في العديد من الجرائم في قفص الاتهام، أما سوزان وليلى وأحمد فكانوا في وسط الحضور حين رفعت الجلسة وقرع القاضي على المنصة وهو يقول:

- محكمة! بعد أن تأكدت المحكمة من كل ما ورد في اعتراف دكتور محمود أبو العلا بكل ما هو متورط فيه من أعمال غير مشروعة من استغلال المرضى وتجارة الأعضاء والدم الفاسد وغيرها، حكمت

المحكمة حضورياً على المتهم محمود أبو العلا بالحبس ١٠ أعوام مع الأشغال الشاقة وتعويضاً قيمته مليون جنيه مصري والمتهم رشوان الجلاد بالحبس ١٥ عاماً وتعويضاً قيمته المليون ونصف المليون جنيه، أما عن الأطباء الخمسة المتورطين فسيؤجل الحكم لشهر مارس ٢٠١١، رفعت الجلسة.

صاح دكتور رشوان وهو يقول:

- دي آخرتها يا محمود... منك لله يا شيخ.

نظر أحمد إلى أبيه وهو واقف خلف القضبان نظرة مليئة بالعتاب، وأخذت ليلى تبكي في حضن أخيها، فصاح محمود ودموعه على خديه:

- خد بالك من ماما وليلى يا أحمد... إنت راجل البيت دلوقتي وأنا عارف إنك حتكون أحسن مني.

جرت سوزان إلى القفص وأمسكت بالقضبان الحديدية؛ حيث كان العسكر يجرون زوجها بعيداً وأخذت تصيح:

- أنا سامحتك يا محمود... سامحتك من كل قلبي.

لم تكن سوزان تتوقع أن تنطق بكلمة الصفح لمحمود يوماً.. ولم تكن تدري السبب الذي دفعها أن تتفوه بحروف هذه الكلمة.. ترى هل شفقة عليه؟ أم مجرد يقينها بصدقه في التوبة ؟ فليس منطقي أن يكون

بداخلها بقايا من حب! ولكن هل يتبع الحب منطق؟!

أما محمود فنظر إليها نظرة امتنان وعرفان.. وتمنى لو يستطيع أن يبعد هؤلاء العسكر من حوله ويحطم هذه القضبان الحديدية ويأخذها في حضنه مرة أخيرة ليفصح لها كيف نزلت كلماتها عليه برداً وسلاماً.. ولكن لم يستطع إلا أن يصيح قائلاً:

- هونتي عليا كتير يا سوزان.. كتر ألف خيرك.

ثم تمتم بصوت خافت وهو يبتسم:

- يبقى أكيد ربنا حيسامحني.

إذا كان باستطاعة البشر الغفران.. فما بال رب هذا البشر وصانعهم... هو الذي كتب على نفسه الرحمة.

* * *

مر على محمود بضعة شهور في سجن طرة، وبدا الإعياء يظهر عليه، فأصبح أكثر نحافة وشحب وجهه إذ فقد شهيته، وقد صام عن اللغو مع باقي المساجين، كان يقضي معظم يومه إما في الأشغال المفروضة عليه أو تلاوة القرآن والصلاة.. وكل يوم يمر، كان يشعره بمزيد من النقاء والعلو والارتقاء... شعور لا يدركه إلا من ذاق حلاوة الإيمان ومن رأى النور بعد الظلام، فوجد في سجنه خلوة رفرف في سمائها قلبه..

وفي يوم كان يسند ظهره على الحائط سمع اثنين من زملائه

المسجونين يتحدثان عنه، فقال أحدهما إلى الآخر وهو يشير إلى محمود:

- الجدع ده لغز كبير... ما بيكلمش حد وطول النهار والليل قاعد القاعدة دي بيقرا قرآن، ده حتى ما بيكلش.

رد الآخر قائلاً:

- يمكن مظلوم... يا ما في الحبس مظاليم.

ابتسم محمود لقول زميليه ثم وضع رأسه على الحائط... وكانت آخر آية يقرأها «..إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا..» وأغمض عينيه... وأصوات المساجين أخذت تعلو من حوله وهم يقولون:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الله يرحمه.

- يا حضرة الصول، نزيل نمرة ٣٣٠ مات.

أما محمود فقد فتَّح عينيه ليجد الملاك جالساً بجانبه مبتسماً!



هل نحن مسيرين أم مخيرين؟.. أو بمعنى آخر، ترى هل نحن نصنع الظروف ونشكلها أم الظروف هي التي تصنعنا وتشكلنا..

سؤال فلسفي منذ قديم الأزل، اختار مفكرو وفلاسفة وفنانو الخمسينات حسم القضية لصالح الظروف، واستراحوا إلى أن يجعلوها أقوى من الإنسان، فتقوده إلى مصيره المحتوم.. كالقطار الذي يمشي في مسار محدد لا يستطيع أن يحيد عنه...

أما اليوم، جاءت رواية "وقت إضافي" لتعيد التقييم..



